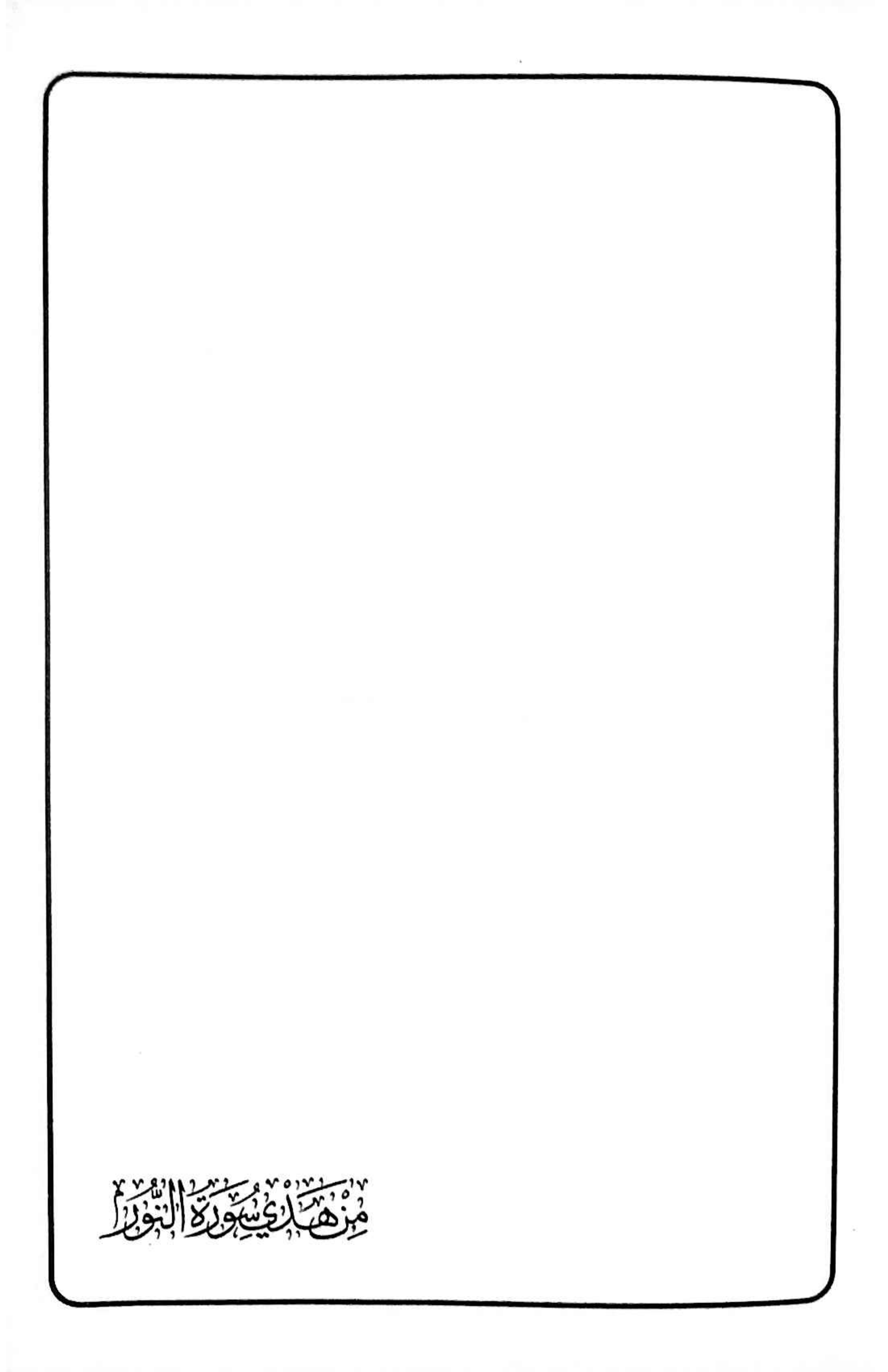

من
هدي سورة النور
حنان لحام
مكتبة الإمام الشافعي
الرياض


مِنْ هَدْيِ سُورَةِ النُّورِ

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مِنْ هُدَى سُورَةِ النُّورِ

حنان لحام

مكتبة الإمام الشافعي
الرياض

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

الناشر

مكتبة الإمام الشافعي

ص. ب ٢١٨٧ ــ الرياض ١١٤٥١

السعودية ــ هاتف ٤١١٨١١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى السورة

اسم السورة مأخوذ من قوله تعالى فيها: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ [الآية ٣٥]. وذلك أن تطبيق أحكام السورة يمنح القلب المؤمن النور.. ويخرج حياة الإنسان من الظلمات إلى النور. وذلك لما فيها من آداب فردية وعائلية واجتماعية.. وتنظيمات وأحكام للحياة الاجتماعية.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد/ ٢٨].

إن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب الخلق.. وقد تجمع إلى ذلك عدواناً على أمن المجتمع وخرقاً في سلامته.. وإن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكافرين بالظلمات. وهذا النور الذي ينعم الله به على المؤمن في الدنيا.. يصحبه في الآخرة ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم/٨]. فالمرء يحشر على ما مات عليه.. ونور الآخرة هو التتمة الطبيعية لنور الدنيا.

وقد نزلت السورة بعد سورة الأحزاب سنة ست للهجرة. بعد غزوة بني المصطلق ــ ويقال لها المريسيع أيضاً ــ وكان المشركون قد رجعوا بعد غزوة الأحزاب خائبين شاعرين بمنعة المجتمع المسلم الناشىء حتى أن

النبي ﷺ قال لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامهم هذا ولكنكم تغزونهم». ولم يكن السبب في انتصار المسلمين ومنعتهم الكثرة في العَدَد والعُدَد.. ولا في القوة الاقتصادية.. فقد كان عدد المسلمين يمثل بالنسبة للعرب ١/ ١٠٠٠. ومجتمعهم الوليد ما زال فقيراً في إمكانياته.. ولكن سبب انتصارهم تفوقهم المعنوي وطهارة مجتمعهم وتماسكه في وحدة ونظام فريد. ولهذا توجه كيد الأعداء إلى إثارة الفتن من داخل المجتمع المسلم لزعزعة البناء وتقويض صرح الأخلاق. فقاموا بمحاولات عدة.. منها: إثارة الأقاويل حول زواج النبي ﷺ من زينب ـ مطلَّقة متبنّاه زيد بن حارثة ـ وقد تناولت سورة الأحزاب هذا الموضوع.. ومنها قول ابن أبيّ بعد غزوة المريسيع: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل».. ثم جاءت قصة الإفك وهي أعظم وأدهى لأنها تستهدف شخص النبي وزوجه.. وتمس بيت من جاء بدين يتمم فيه مكارم الأخلاق.. فنزلت سورة النور لِتَسد الثغرات في المجتمع المسلم بمزيد من الآداب والأحكام تزيد من التماسك الخلقي والرفعة المعنوية في المجتمع المسلم بدلاً معه أن يؤنب المنافقين على أعمالهم وحملاتهم على المسلمين. وجاءت أحكام السورة في ظرف شعر المسلمون بحاجتهم إلى هذه الأحكام كحصون تحميهم من الخلل الداخلي..

وعلى هذا نستطيع أن نقول أن محور السورة هو التربية التي تشتد أحياناً حتى تصل إلى الحدود وترق أحياناً حتى تتناول أبسط آداب اللياقة في التعامل الاجتماعي.. ـ مثل غض البصر والاستئناس عند الدخول إلى البيوت ـ والهدف واحد وهو تربية الضمائر تربية نابعة من مصدر النور الأول الذي انجابت منه الظلمات وتجلت به عجائب السموات.

● ● ●

مواضيع السورة وأقسامها

١ ــ أحكام: من الآية ١ ــ ١٠

١ ــ مقدمة للأحكام.

٢ ــ الزنـى:

١ ــ حد الزنى.

٢ ــ تحريم الزواج من الزاني.

٣ ــ القـذف:

١ ــ عقوبة القاذف.

٢ ــ المغفرة للتائب.

٤ ــ اللعان:

١ ــ الزوج يرمي زوجته.

٢ ــ الزوجة تدرأ عن نفسها.

٣ ــ تعقيب: فضل الله ورحمته.

٢ ــ قصة الإفك: من الآية ١١ ــ ٢٦

١ ــ تهديد الذين جاؤوا به ــ لا تحسبوه شراً.

٢ ــ عتاب المؤمنين على سوء تصرفهم:

١ ــ الظن الحسن.

٢ ـ طلب الشهداء.

٣ ـ الإفاضة فيه.

٤ ـ خطورة القول دون علم.

٥ ـ يعظكم الله ويبين لكم.

٣ ـ عقوبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة.

٤ ـ توجيهات للمؤمنين:

١ ـ لا تتبعوا خطوات الشيطان.

٢ ـ العفو والصفح والإحسان.

٣ ـ القاذفون لعنوا في الدنيا والآخرة.

٤ ـ الخبيثات للخبيثين.

٣ ـ احتياطات أمن (قسم أول): من الآية ٢٧ ـ ٣٤

١ ـ أدب الدخول إلى المنازل.

٢ ـ غض البصر وحفظ الفرج وحفظ الزينة:

١ ـ أمر للمؤمنين.

٢ ـ أمر للمؤمنات: ضرب الخمار ـ حفظ الزينة ـ المحارم.

٣ ـ التزويج دون خوف من الفقر والتعفف لمن لا يجد.

٤ ـ معاونة الأرقاء على التحرر.

٥ ـ منع التحريض على حرفة البغاء.

٦ ـ آيات مبينات وموعظة (تعقيب).

٤ ـ فاصلة: آيات لتحريك الإيمان من الآية ٣٥ ـ ٥٧

١ ـ آية النور.

٢ ــ النور في بيوت الله. (رجل قلبه معلق بالمساجد).

٣ ــ مثل أعمال الكافرين.

٤ ــ تسبيح الكون.

٥ ــ امتحان الإيمان بالطاعة.

٦ ــ وعد الاستخلاف وشرطه.

٥ ــ احتياطات أمن (قسم ثاني): من الآية ٥٨ ــ ٦٤

١ ــ الاستئذان الخاص بالبيوت:

١ ــ استئذان الأطفال والخدم.

٢ ــ استئذان البالغين.

٢ ــ القواعد من النساء.

٣ ــ من يجوز تناول الطعام عندهم:

١ ــ رفع الحرج عن ذوي العاهات.

٢ ــ البيوت التي يجوز الأكل فيها دون استئذان.

٣ ــ السلام عند الدخول.

٤ ــ آداب اجتماعية:

١ ــ من هم المؤمنون.

٢ ــ أهمية استئذان القائد.

٣ ــ تمييز الرسول ﷺ.

٤ ــ تنبيه إلى الحذر من تبرير التخلف.

٥ ــ ختام: الله له الملك والعلم والمرجع.

• • •

١ ــ أحكام

١ ــ مقدمة:

تفتتح السورة بهذا المطلع الفريد الذي لم تفتتح بمثله أي سورة أخرى:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾:

وفي ذلك ما يدل على مدى اهتمام الله سبحانه وتعالى بالجانب الأخلاقي في الحياة وضرورة صيانته. هذا المطلع يقرر:

١ ــ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فهي من عند الله فتأدبوا في تلقيها واقدروها حق قدرها.. فهي أوامر من خالق البشر.. وليست ككلام البشر.

٢ ــ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فهي فرض من الله على المؤمنين وليست مجرد نصائح ومستحبات..

٣ ــ ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فأحكامها واضحة بينة.. ولا مجال للاعتذار بعدم الفهم.

٤ ــ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ فهي ذكرى ومصدر خير وبركة للمؤمنين. والله يريد بأحكامه إلاَّ نصحكم ونفعكم. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء/ ٢٨].

حقاً إنه لمطلع فريد.. يتكرر فيه الضمير (نا) للتأكيد.. كي يخشع القارىء وهو يستفتح آيات هذه السورة وأحكامها.. فهي خطاب لكم ممن بيده كل شيء.. والذي نحن منه وإليه.. صاحب الوجود الحق.. يتهاوى الناس ويهلكون.. وهو وحده الباقي.. القادر العزيز الحكيم.

فالآية تعتبر أقوى افتتاح وأبلغ مقدمة لمرسوم إلهي أرسله الله إلى عباده.. وكل هذا يشيد بخطورة الأخلاق في الأسرة والمجتمع.. ويوحي بمدى اهتمام الله سبحانه وتعالى بذلك.

٢ ـ حد الزنى:

ولا بد أن نذكر ابتداءاً أن الشرائع القديمة كلها قبل الإسلام قد حرمت الزنى. وإن كانت بعض النظم تعتبر أن الزاني إن لم يكن محصناً لا يعاقب.

وأما القوانين الغربية (الوضعية) ـ والتي تتبعها معظم بلاد المسلمين الآن ـ فإنها لا تعتبر الزنى جريمة يعاقب فاعلها إلاَّ في حالة الاعتداء والاغتصاب للمرأة. أما إذا حدث الزنى بالتراضي فلا عقوبة عليه. وللزوج أو الزوجة الحق في طلب الطلاق عندها. وللزوج أن يطلب من المحكمة تغريم الزاني بزوجته بغرامة مالية.

وبعض البلدان الإسلامية في هذا العصر قد عادت إلى إقامة الحدود وتطبيق العقوبات الإسلامية.. ولكن ينبغي أن ندرك أن هذا لا يجدي إن لم يسبق بسد الثغرات في المجتمع.. ولا ننسى قول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

فما جدوى العقوبة إذا كانت أبواب الغواية والإغراء بالفاحشة مفتوحة في المجتمع..؟!.

والإسلام يعتبر الزنىٰ ــ إطلاقاً ــ جريمة يعاقب فاعلها إلّا إذا كان مكرهاً. . ولو تساهل القانون في ذلك لدمرت هذه الجريمة الحياة الاجتماعية والإنسان نفسه. . وقضي على الزواج والأسرة. ولقد تحقق وعد الله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت/٥٣]. ولا تزال الأدلة تظهر وتنكشف لتبين أن أحكام القرآن هي الخير وفيها صلاح البشر وحمايتهم. . فهاهو طاعون العصر (الإيدز) يدق ناقوس الخطر وينشب مخالبه في المجتمعات التي استهانت بالفواحش وأطلقت لها العنان بدعوى الحرية الشخصية. . وكما قال رسول الله ﷺ في حديث شبه به المجتمع بالسفينة. . «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(١) .

والله سبحانه لما خلق الإنسان لم يهمل غرائزه وإنما وضع لها نظاماً وأحاط الإنسان بوسائل الطهارة والوقاية:

١ ــ فلقد عمر القلوب بخشية الله والخوف من يوم الجزاء.

٢ ــ وأباح الزواج وأوجد التسهيلات له. وأباح الطلاق والزواج للمطلقة والأرملة. . وأباح التعدد للرجال. . وأمر المجتمع بمساعدة من يريد الزواج.

٣ ــ وأزال من المجتمع البواعث التي ترغب الفرد بالزنىٰ مثل: مهنة البغاء. . وإشاعة الفاحشة في المجتمع بأي أسلوب. وأمر النساء بالحجاب وأمر الجميع بغض البصر. .

٤ ــ أما الذي يخالف هذا النظام رغم هذه الاحتياطات وهذه التسهيلات في الزواج فذلك هو الفوضوي الذي يستحق العقاب. ويقام

(١) رواه البخاري.

عليه الحد ـ لأنه تعدى الحدود وجاوزها ـ ومن المهم أن نلاحظ أن عقوبات الجرائم الكبرى سميت في الإسلام: حدوداً لأن لحرية الفرد حدوداً إن تجاوزها عرض المجتمع كله للأذى والخطر.. ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[1]. إن الزاني عضو مريض فاسد في جسد الأمة.. ويستفحل فساده حين يكون محصناً (متزوجاً) وأطباء المجتمع مضطرون إلى بتر هذا العضو الفاسد صيانة لكيان الأمة وسلامتها.

إننا أمام حكم يتعلق بإحدى الغرائز الإنسانية ـ الغريزة الجنسية ـ وموقف الإسلام من الغرائز ـ أو الطاقات ـ هو التوسط بين الإطلاق والكبت.. فهو ينظمها ويضبطها ضمن دائرة مصلحة الفرد والمجتمع. وقد أصبح معروفاً أن كبت الطاقات والغرائز يجمد المجتمع.. وإطلاقها يدمر المجتمع ـ وهذا شبيه بعملية شد الأوتار.. إن شدت زيادة انقطعت. وإن أرخيت كان اللحن نشازاً ـ ولقد وضع الإسلام لضبط الغرائز خطة دقيقة لا بد من مراعاة تفاصيلها وإلاَّ ظهر الخلل.. تأمل كيف نسقت غريزة التملك ووضعت لها خطة متكاملة تبدأ من تربية الضمير حتى يراقب الله ويؤثر الآخرة على العاجلة.. ثم تعترف بالملكية الفردية وتحيطها بالاحترام.. ولكنها تفرض عليها الزكاة.. وترغب بكل أسلوب ممكن بالصدقات والإيثار.. وتضع حدوداً لا يجوز تجاوزها ـ مثل تحريم السرقة والربا والغش والاحتكار و... ـ وإن التفريط بجزء من تفاصيل هذه الخطة يعرقل المسيرة.. أوليس الله بأحكم الحاكمين؟!.

ولقد بدأ الإسلام بمعالجة مرض الزنى في وقت مبكر.. منذ المرحلة المكية.. فالآيات المكية تنهى عن الزنى وتنفر المؤمن منه.. وتصف

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

المؤمنين بالطهارة والعفة والبعد عن الفواحش. أما العقوبة فلم تشرع إلاَّ في المدينة وكان فيها تدرج فلقد سبقت هذه الآيات ــ في سورة النور ــ آيتان من سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾[1] . أي أن الحكم كان بالنسبة للزانية هو حبسها في البيت.. وعزلها عن المجتمع صيانة له من العدوى وكفاً لها عن ممارسة الجريمة. فلما نزلت آية سورة النور هذه:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ . . .﴾ :

قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني: قد جعل الله لهن سبيلاً»[2] .

وأول ما تقرره الآية أن الرجل والمرأة سيان في هذا الحكم.. لا كما تعود الناس أن يتساهلوا مع الرجل.. ويضخموا ذنب المرأة. وهي ظاهرة تستحق الدراسة من قبل الباحثين.. ما هو سبب هذا العرف الخاطىء في التفريق بين جريمة الذكر وجريمة الأنثى..؟! وإلى أي مدى يرتبط بسيادة منطق القوة الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه سبب هلاك الأمم في الماضي «إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». والإسلام على العكس من ذلك يخفف عن الضعيف العقوبة مراعاة لظروفه ــ وستأتي عقوبة العبد على الزنى ــ ويضاعف جرم الشريف كما قال في القرآن عن نساء النبي ﷺ.

---

(١) يراجع تفسير الآية رقم ١٥ من كتابي «من هدي سورة النساء».

(٢) رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

كذلك يأتي الحكم عاماً في الآية.. ولكن السنَّة هي التي تدل على تقييده بالأعزب. ولهذا لا بد من الإشارة إلى بعض التفاصيل التي وردت في السنة حول هذه الجريمة.

١ ـ شروط العقوبة:

١ ـ شهادة أربعة عدول يقرون برؤية الفاعل وهو يرتكب جريمته.

٢ ـ أو اعتراف الفاعل بشكل واضح مبين ـ على أن يكون المُعترف بكامل وعيه ـ.

٣ ـ إذا كان الفاعل:

١ ـ مسلماً. ٢ ـ بالغاً.

٣ ـ حراً. ٤ ـ عاقلاً (غير معتوه أو مجنون).

إذا وجدت هذه الشروط فقد وجب على الحاكم المسلم تنفيذ العقوبة. وليس ذلك لأحد غير الحاكم المسلم. يقول ﷺ: «تعافوا الحدود فيما بينكم. فما بلغني من حد فقد وجب»[١].

وعلى الفرد المسلم أن يدرك ويميز الواجبات التي هو مطالب بها مثل: الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة و... من الواجبات التي هي من اختصاص الحاكم، مثل إقامة الحدود وتنفيذها، وإعلان الجهاد..

٢ ـ أنواع العقوبة:

١ ـ الرجم للحر المتزوج.. وآية الرجم كانت في القرآن ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها. وقد ثبت الرجم بالسنة (رجم ماعز والغامدية).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود.

٢ ـ الجلد: مائة جلدة للحر العازب.. وبعضهم أضاف تغريب عام للرجل. وبعضهم رد التغريب إلى اجتهاد الإمام إن وجد فيه مصلحة.

٣ ـ عقوبة العبد والأمة: نصف عقوبة الحر العازب. (وقد ورد ذلك في سورة النساء الآية ٢٥).

٣ ـ أمثلة من السيرة:

لم يتجاوز عدد الحوادث التي أقيم فيها الحد في عهد الرسول ﷺ عدد أصابع اليد.. وذلك لأن المجتمع المسلم النظيف كان موجوداً يقيم حدود الله ويحقق آداب القرآن. كما أن العقوبة كانت رادعة. منها:

١ ـ قصة ماعز بن مالك الأسلمي: وهو غلام نشأ في حجر هزال فزنى بجارية من الحي فأوحى إليه هزال بالاعتراف إلى رسول الله ﷺ. فجاء النبي ﷺ وهو في المسجد فناداه: يا رسول الله إني زنيت. فأعرض عنه النبي ﷺ وقال له: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه»، فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: إني زنيت. فأعرض عنه النبي ﷺ فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: طهرني يا رسول الله فقد زنيت، فقال له أبو بكر: «لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله ﷺ». فكرر ذلك.. فقال له رسول الله ﷺ: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت». قال: لا. فسأله رسول الله ﷺ عن فعلته بدقة وبأساليب مختلفة.. وهو يقر بالزنى.. فسأله: «هل تعرف الزنىٰ»؟ فقال: نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من أهله حلالاً.. فسأله: «أو قد نكحت؟» فقال: نعم. فسأل النبي ﷺ: من حوله من أصحابه أبه جنون؟ فأخبروه أنه ليس بمجنون. فسألهم: «أشرب خمراً»؟ فقام رجل منهم فاستنكهه ـ أي شم ريح فمه ـ فلم يجد منه ريح خمر. ثم قال لهزال: «لو سترته بثوبك كان خيراً لك» فعند ذلك أمر برجمه فرجم خارج المدينة. فلما أحس مس الحجارة صرخ بالناس: يا قوم ردوني

إلى رسول الله. . ، ولكن الناس ضربوه حتى مات. فذكروا لرسول الله ﷺ أنه فرّ حين أحس مس الحجارة ومس الموت. فقال ﷺ: «هلا تركتموه لعله أن يتوب فيتوب الله عليه». (توجد روايات هذه القصة في معظم كتب الحديث)[1] .

٢ ــ قصة الغامدية: وهي امرأة من غامد ــ من جهينة ــ جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه». فقالت: تريد أن تردّدني كما رددت ماعز بن مالك؟ إنها حبلى من الزنى. فقال: «أنت؟» قالت: نعم. فقال لها ﷺ: «اذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: «يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام». فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها[2] .

٣ ــ عن أبي هريرة أنه ﷺ اختصم إليه رجلان فقال أحدهما: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي: إن ابني كان عسيفاً (أجيراً) على هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة ووليدة. وإني سألت أهل العلم فقالوا: على ابنك جلد مائة وتغريب عام. فقال النبي ﷺ: «لأقضينَّ بينكما بكتاب الله. أما المائة شاة والوليدة فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغدُ يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها. فاعترفت فرجمها»[3] .

---

(١) راجع تفسير سورة النور صفحة ٧١ لأبي الأعلى المودودي.

(٢) صفحة ٧٢ من المصدر السابق.

(٣) مذكور في الصحيحين.

نستنتج من هذه الأخبار فوائد كثيرة منها:

١ ــ حد البكر: جلد مائة ونفي عام ــ للرجل ــ.

٢ ــ لا غرامة على الزاني إن لم تكن جريمته اغتصاباً.

٣ ــ إن صرح الزاني باسم الطرف الثاني فيجب أن يحقق الحاكم معه. فإن أقر أقيم عليه الحد. فإن لم يصرح باسم الطرف الثاني لا يطلب منه هذا. فإن أنكر الطرف الثاني الفعلة فالأغلب أن يعاقب الأول عقابين: حد الزنى وحد القذف.

٤ ــ حد المحصن والمحصنة: الرجم.. ومن الفقهاء من قال بالجلد والرجم. ولكن النبي في تطبيقه للحد لم يجمع بين الجلد والرجم.

٥ ــ حوادث الزنى في عهدالنبي ﷺ كان الفاعل هو الذي يعترف. ولم تكن قضايا ترفع للحاكم بشهادة شهود.

٦ ــ دقة النبي في التحقيق مع الفاعل المعترف... وتحققه من توفر الشروط فيه..

٧ ــ من الأفضل الستر في مثل هذه الحالات.. أما إن وصل الأمر إلى الحاكم فعليه أن يحقق ويقيم الحد.

٨ ــ حين يقام الحد على المرأة فيجب الانتظار حتى تلد وترضع طفلها.. ولا يحرم الطفل بجريمة أمه. ثم توضع في حفرة عند الحد لضمان سترها.

٩ ــ على الحاكم أن يقدم ضمان التربية والرعاية لأولاد من أقيم عليها الحد.

١٠ ــ ورد أن النبي ﷺ رجم يهوديين.. ولكن هذا لا يعني

سقوط شرط الإسلام في الفاعل ولكن النبي ﷺ حكم فيهم بحكم التوراة التي تنص على رجم الزاني.

٤ ـ ملاحظات أثناء التنفيذ:

١ ـ السوط الذي يجلد به يجب أن يكون بين اللين والشديد.

٢ ـ الضرب: يشترط فيه أن لا يقطع اللحم ولا يكسر العظم. ويوزع على سائر الجسم ما عدا الوجه والعورة. وروي أن عمر قال للجلاد: لا ترفع إبطك.

٣ ـ الجلادون يختارون من أهل التقى والورع[١].

٥ ـ ملاحظات بعد التنفيذ:

ـ بعد إقامة الحد يغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين. ولا يجوز للمسلمين أن يذكروه إلاَّ بخير. ويؤمر المسلمون بالاستغفار له.

ـ في رواية بريدة أن النبي ﷺ قال: «استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[٢]. وفي هذه الرواية نفسها أن النبي ﷺ أمر الناس برجم الغامدية فرجموها.. فرمى خالد رأسها بحجر فنضح الدم على وجهه فسبها.. فقال النبي ﷺ: «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له».

ـ وفي رواية لعمران بن حصين أن النبي ﷺ لما أراد الصلاة على الغامدية قال له عمر: يا رسول الله أتصلي على هذه الزانية؟ قال ﷺ: «لقد تابت توبة لو قسمت بين أهل المدينة لوسعتهم»[٣].

---

(١) جاء في صحيح مسلم.

(٢) تراجع التفاصيل وأقوال الفقهاء في هذا الأمر في كتاب تفسير سورة النور للمودودي.

(٣) رواه مسلم.

ـ تلك هي الروح الحقيقية للعقوبة في الإسلام.. إنها تطهير للجاني يمنحه الفرصة للعودة إلى صفوف الصالحين حيث يعاد إليه اعتباره وكرامته من جديد. ومن المؤسف أن يضيع هذا الأمر في أكثر المجتمعات.. فنجد أن الجاني بعد أن يعاقب ويتوب يبقى منبوذاً في المجتمع وكثيراً ما تغلق في وجهه سبل العمل لتحصيل الرزق.. فيضطر إلى العودة إلى الجريمة..!!

حقاً إنه لأمر عجيب كما قال أحدهم: إن الله يغفر.. ولكن الناس لا تغفر..!!

وعلى الدولة المسلمة أن توفر ضمانات الاستقامة والعمل الشريف للمجرم التائب.

والقرآن يضيف شرطين أثناء تنفيذ العقوبة.

١ ـ ﴿... وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾:

قد يبدو الأمر هنا معارضاً لتيار الرحمة المتدفق الذي فجره الإسلام في نصوص كثيرة.. من مثل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف/ ١٥٦]. و «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[(١)].

ولكن للرحمة مكانها المناسب.. فإذا استعملت في غير محلها محقت بركتها.. وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.. والشيطان يزين للإنسان الرحمة في غير محلها والقسوة في غير مكانها.. إن رحمة المجرم قسوة على المجتمع بأسره.. عجباً لنا كيف نرحم المجرم وننسى أننا نعرض الأمة كلها بهذه الرحمة لأن يعتدىٰ عليها وتفقد أمنها..؟! إن النظر الموضوعي الذي يهتم برؤية الأمر من جميع جوانبه يدرك أن العقوبة

---

(١) متفق عليه.

بحد ذاتها هي الرحمة للأمة.. بل وللجاني نفسه.. لأنها تحرره من ذنبه وتغسل قلبه وتمنحه الفرصة للبدء من جديد.

إن محبة الفواحش مرض في القلب، والرأفة بالمريض تقتضي منا أن نعينه على شرب الدواء وإن كان مراً. ولا بد من توبيخ من يقع في مقدمات الزنى لإعانته على الكف.

وقد جاء في حديث عنه ﷺ: «يؤتى بوالٍ نقص من الحد سوطاً فيقال له: لم فعلت ذاك؟ فيقول: رحمة لعبادك. فيقال له: أنت أرحم بهم مني؟! فيؤمر به إلى النار. ويؤتي بمن زاد سوطاً فيقال له: لم فعلت ذاك؟ فيقول: لينتهوا عن معاصيك. فيقول: أنت أحكم بهم مني؟! فيؤمر به إلى النار[1].

وفي حديث آخر: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»[2]. وإن إقامة الحد لأرحم بالناس من تعرضهم للعواقب الوخيمة التي تنتظرهم لو شاعت فيهم الفاحشة.

ولنا أن نلاحظ أن كثيراً من الأمم المعاصرة التي تطعن في نظام العقوبات الإسلامي وتتهمه بالقسوة.. تمارس داخل بلادها أو مع الشعوب الأخرى المستضعفة ما تقشعر له الأبدان من الضرب والتعذيب والقتل دون أن تكون هناك جريمة واضحة.. وأحياناً لمجرد المعارضة الساسية! وإن كثيراً من المشتبه بهم ـ الذين لم تثبت إدانتهم بعد ـ يتلقون مائة جلدة كتحية استقبال بمجرد اعتقالهم.. فما أعجبه من منطق؟! فهل التنكيل بالأبرياء هو الإنسانية وعقوبة المجرمين هي الوحشية؟! ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾؟ [المائدة/ ٥٠]. ولو كنا نملك اليقين

(١) التفسير الكبير للرازي.

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير.

بالله العليم الحكيم لسلمنا لحكمه أكثر مما نسلِّم لأوامر الطبيب وتوصياته.

٢ ـ ﴿. . . وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾:

إن من أهداف العقاب:

١ ـ أن يذوق المخطىء وبال أمره. وأفضل عقاب ما كان من جنس العمل والزاني اندفع وراء لذة الجسد.. فيعاقب بإيلام هذا الجسد بالجلد. واستهان بالآداب والأعراض فيقابل بالإهانة والتحقير بأن يشهد عذابه عدد من المؤمنين.. وهي عقوبة نفسية له.

٢ ـ أن يرتدع المخطىء عن العودة إلى الذنب.

٣ ـ أن يكون في ذلك عبرة للناس وردع لهم عن الاقتراب من الفواحش. وكأن شهودهم عقاب المجرم بمثابة عملية جراحية نفسية تستأصل الشر من النفس حين ترى العقاب.

تحريم الزواج من زاني أو زانية:

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾:

وهذه عقوبة ثالثة اجتماعية من شأنها أن تجعل الزاني منبوذاً في المجتمع معزولاً عنه.. وفي هذا العصر نستطيع أن ندرك الحكمة أكثر في هذا الحكم.. إذا أن فيه حماية صحية للمجتمع من العدوى بالأمراض التناسلية.. إضافة إلى الحماية النفسية من عدوى الأمراض الأخلاقية.

ومما لا شك فيه أن التوبة الصادقة من الزاني والزانية تلغي هذا التحريم.. بعد أن يتبين صدق التائب في استقامته وحرصه على الطهارة في سلوكه.. لكن للأطباء دورهم في النظر والاجتهاد في هذا الأمر.. وهم أقدر منا على إصدار الحكم بإلغاء هذا التحريم أو بقائه.. فقد تشفى النفس

من مرض الزنى. . ولكن الجسد ما زال يحمل عواقبه الوخيمة. . وذلك أن التوبة لا تعفيك في الدنيا من أثر الذنب. ولا بد من تحقيق الضمانات الصحية في المجتمع.

وقد تعود الناس أن يفرقوا بين الرجل والمرأة في هذه الجريمة. فيعتبرون زلة الشاب قبل الزواج أمر طبيعي. . لا يحتاج إلى توبة. . ويقدمون على تزويجه دون تمحيص أو اهتمام بتوفير فرص التوبة وإعانته عليها. . وفي ذلك تعريض للمرأة المؤمنة للفتنة في دينها وتفريط في حقوقها.

ويذكر في نزول الآية: أن مرثد بن أبي مرثد كان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ـ لعلهم الذين حبستهم قريش عن الهجرة من ضعفاء المسلمين ـ وفي مكة امرأة بغي يقال لها (عناق) كانت صديقة له ـ لعل هذا قبل إسلامه ـ وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة ليحمله. قال: فجئت حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. . فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلي عرفتني. فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً هلم فبت عندنا الليلة. قال: : فقلت: يا عناق حرم الله الزنى. فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فانتهينا إلى غار أو كهف فدخلت فيه فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته. . حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ (مرتين) فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . . .﴾، فقال ﷺ: «يا مرثد. الزاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مشركة فلا تنكحها»[1] .

---

(١) رواه الترمذي واللفظ له. . والنسائي وأبو داود.

ملاحظات أخيرة حول الزنى:

١ ــ عقوبة لفاحشة التي دون الزنى: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها.. فأنا هذا فاقضِ فيَّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك.. ولم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً. فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً فدعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود/ ١١٤]. فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة»(١).

٢ ــ لا يوجب القانون الإسلامي أن يقر الجاني بجنايته أو أن يبلغها للحاكم من اطلع عليها. قال ﷺ: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»(٢).

٣ ــ إذا كان الاعتراف غير واضح ماذا يصنع الحاكم؟ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليَّ. قال ولم يسأله عنه وحضرت الصلاة فصلى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام الرجل فقال: يا رسول الله أصبت حداً فأقم فيَّ كتاب الله. قال: «أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم. قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك (أو حدَّك)»(٣).

٤ ــ لا عقوبة في حالة الإكراه. خرجت امرأة تريد الصلاة فتلقاها رجل فقضى حاجته منها فصاحت وانطلق. ومرت عصابة من المهاجرين.. فأخذوا الرجل فأتوا به الرسول ﷺ فقال لها: «اذهبي فقد غفر الله لك»

---

(١) رواه مسلم وأبو داود.

(٢) أحكام القرآن للجصاص.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

ورجم الرجل[1]. واختلفوا في إكراه الرجل. فبعضهم قال لا يقام عليه الحد ومنهم الشافعي. وقال زفر: لا يقبل عذر الإكراه بحق الرجل. وقال أبو حنيفة: إن أكرهه سلطان أو حاكم لا يقام عليه الحد لأن الحكومة هي التي تقيم الحدود. وأبو الأعلى المودودي يرجح الرأي الأول (لأن الانتشار وإن كان دليلاً على الشهوة لكنه ليس بدليل على الطوع والرضا. ولا يكفي وجود الإرادة في تحقق الجريمة بل لا بد من الحرية مع الإرادة).

٥ ــ حكم الاشتباه بالزنىٰ دون أن توجد بينة. لا يقام حد لمجرد الاشتباه.. فقد كانت في المدينة امرأة تظهر في الإسلام السوء ولكن لم تقم عليها البينة فلم تُحدَ مع أن النبي ﷺ نفسه قال عنها: «لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها»[2].

٦ ــ عقوبة الشذوذ الجنسي (عمل قوم لوط). جاء فيه حكم أولي في سورة النساء ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ... ﴾، ثم جاء الحكم النهائي في السنة «اقتلوا الفاعل والمفعول به». وفي بعض الروايات «أحصنا أو لم يحصنا»[3]..

وبعد.. فإننا نسمع أحياناً نقداً لنظام الحدود والعقوبات في الإسلام بدعوى أنها تنافي حقوق الإنسان ولم تعد تناسب عصر التقدم هنا.. ولا بد من الانتباه قبل كل شيء إلى الشروط القاسية التي وضعها الإسلام لإثبات استحقاق المجرم للعقوبة المحددة.. وبعد ذلك نستطيع أن نقول: إن الفكر الإسلامي يرحب بكل اجتهاد جديد يثبت صلاحيته لحياة الفرد

---

(١) الترمذي وأبو داود.

(٢) تفسير سورة النور للمودودي صفحة ٦٤.

(٣) المصدر السابق صفحة ٨٥.

والمجتمع أكثر من النظم السابقة.. فالقرآن يطالبنا بالنظر فيما ينفع الناس ومراعاة ما هو خير وأبقى. ولكن حتى الآن هل طرحت حلول أفضل وأصلح لعلاج الجريمة؟! مثلاً: الدكتور عادل صادق في كتابه (في بيتنا مريض نفسي) يصنف من يركتبون الجرائم فيقول: إن المرض النفسي لا يدفع إلى أية جريمة أما المرض العقلي فإنه يفقد المريض استبصاره فيختل تفكيره ووجدانه ويتسم سلوكه بالعدوانية والعنف أحياناً (والشريعة الإسلامية اشترطت لتحقيق المسؤولية الجنائية أن يكون الجاني عاقلاً بالغاً مختاراً... فالإصابة بالمرض العقلي تؤدي إلى عدم المسؤولية الجنائية.. والمحقق الجنائي لا بد أن يكون على دراية طيبة بالأمراض العصابية والذهانية.. من أجل الوصول إلى الحقيقية حتى لا نعاقب مريضاً وحتى لا يفلت من العقاب سليم)[1]. أما المجرم الحقيقي الذي يستحق العقاب في الإسلام فهو الذي يطلق عليه الدكتور: السيكوباتي أو (ضد المجتمع) ويقول عنه: (أعترف أن الطب يقف عاجزاً تماماً أمام هذه الشخصية... مهما بذلنا من أجل هذه الشخصية فجهدنا كله ضائع. لا أمل في إصلاحه على الإطلاق. وعبث أن نعطيه الثقة أو الأمان آملين في إصلاحه.. والعقاب لا يجدي ولا يفيد فهو لا يرتدع.. لا يتعلم من أخطائه وذلك لسبب بسيط: أن وجدانه ميت ولهذا لا يوجعه ضميره. تاجر المخدرات سيكوباتي.. بعض المدمنين سيكوباتيين. مرتكب جريمة الاغتصاب سيكوباتي. العدواني الشرس السادي (الفتوة) سيكوباتي. القاتل إذا لم يكن مريضاً عقلياً فهو سيكوباتي. وكذلك السارق والمرتشي والنصاب.. كيف نتعامل معهم..؟ إنها مشكلة.. عموماً النصيحة الوحيدة الضعيفة التي أقدمها: ابتعد عن طريق السيكوباتي.. تنبه لخبثه.. لا تفكر في أن تبذل

(١) صفحة ٢٢٢ من كتاب في بيتنا مريض نفسي ـــ الدكتور عادل صادق.

جهداً لإصلاحه لأنه لا أمل..)[1] . وفي موضع آخر يتحدث عن علاج المصابين بالشذوذ الجنسي فيقول: (ومن صنوف العلاج النفسي العلاج السلوكي والذي ينبني على مفهوم أن الانحراف الجنسي هو تعليم خاطىء يمكن إزالته وإحلال النمط السلوكي السوي محله. فمثلاً الشخص الذي لديه جنسية مثلية.. نجعله يتصور على مستوى الخيال وكأنه يمارس الجنس مع شاب مثله وأن يستحضر الرغبة والإحساس باللذة وفي هذه اللحظة نلسعه بصدمة كهربائية على جانبي الجبهة وبذلك يحدث ارتباط شرطي بين الألم والرغبة غير الطبيعية. وبتكرار هذه الجلسات نصل إلى مرحلة يشعر فيها المريض بالألم في رأسه بمجرد التفكير في هذه العلاقة)[2] .

ماذا فعل العلاج السلوكي سوى أنه استبدل السوط أو الحجارة بالكهرباء..؟! لقد طرح القرآن علاجاً مرحلياً لهذه الجريمة ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ ... ﴾[3] . وإن لعلاج القرآن ميزة إذ أنه لا يعالج المجرم وحده بل إنه يعطي لقاحاً للمجتمع يحصنه ضد الجريمة حيث يشهد العقوبة طائفة من المؤمنين فيتكون عندهم ربط شرطي بين الجريمة والألم والذل الاجتماعي.

أعود فأقول: حتى الآن لم يقدم البديل الأنجح في علاج الجريمة والمجرمين.. بل إن الأبحاث والدراسات النفسية وقفت عاجزة أمام السيكوباتي.. ولكن الشريعة لم تعجز ولم تنفض يدها منه.. بل استطاعت أن تطهر قلوب كثير منهم بفتح أبواب التوبة في كل مجال.. وحتى أمام مرتكب الجريمة الكبرى (الحرابة) ـ وهو غالباً من النوع السيكوباتي ـ

---

(١) صفحة ٢٠٣ من المصدر السابق.

(٢) صفحة ٢١٤ من المصدر السابق.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦.

إذ أعفت التائب الذي لم يُلْقَ القبض عليه بعد من العقاب. . ـ راجع الآيات ٣٣ و ٣٤ من سورة المائدة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا. . .﴾.

ومع ذلك فإن الأبحاث النفسية والإنسانية تثري الفكر الإسلامي. . والإسلام يطالب أتباعه بالدرس والبحث والارتقاء. . وعسى أن يهدينا الله لأقرب من هذا رشداً. . وعلينا أن نرحب بكل ما يحقق نفعاً أكبر وأدوم لأكبر عدد ممكن من الناس.

٣ ـ حد القذف:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ. . .﴾:

في هذه الآية يضع الله شروطاً ثقيلة للحديث عن هذا الموضوع بغير بينة. . لتنمية الضمير وتربية الالتزام حتى تنمو الحاسة الخلقية وتتطهر المجالس من الخوض في الأعراض مما يهون من شأن جريمة الزنىٰ. . ويوحي للناس بشيوع الفاحشة. فيسهل الوقوع فيها. . ويفقد المجتمع أمنه وصلابته.

ولذا جاء النهي ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[1]. فإن هذا يساعد في البعد عن السوء. والقرآن يعلم أتباعه أن يتثبتوا في الكلام ونقل الأخبار وتصديقها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[2].

والقذف مصطلح اتفق الفقهاء على أنه يستعمل للرمي بتهمة الزنى.

(١) سورة النساء: الآية ١٤٨.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.

وهو خاص بها. ومن المتفق عليه أن المقصود بهذا الحكم هو الرمي بالزنىٰ فقط وأنه حكم عام بالرجال والنساء سواء في القاذف أو المقذوف.. عندما تتوفر الشروط فيهما.

وشروط القاذف: أن يكون: ١ ــ بالغاً. ٢ ــ عاقلاً. ٣ ــ قذف بإرادته. ٤ ــ ولم يأت بأربعة شهداء.

وشروط المقذوف: في الآية نص على شرط الإحصان ﴿ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾، والإحصان يأتي بمعنى الحرية والعفة والزواج، ونستبعد المعنى الثالث لأن المقذوف يمكن أن يكون أعزباً.

والشروط التي ذكرها العلماء: أن يكون: ١ ــ بالغاً. ٢ ــ عاقلاً. ٣ ــ عفيفاً. ٤ ــ حراً.

وليس معنى ذلك أن يعفى من العقاب من قذف صبياً أو عبداً.. ولكن يجتهد الحاكم في تحديد العقوبة المناسبة دون أن تبلغ حد القذف.

وأما شرط الإسلام.. فالأولى أن يكون القاذف مسلماً لأن حدود الإسلام لا تقام على غير المسلم. وأما المقذوف فهل يشترط أن يكون مسلماً..؟! أُرجِّح أنه لا يشترط أن يكون المقذوف مسلماً ويكفي أن يكون عفيفاً.. والله أعلم.

العقوبة:

﴿ ... فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ ﴾:

نلاحظ أن القاذف تقع عليه ثلاثة أنواع من العقاب:

١ ــ عقوبة جسمية: قدرها ثمانون جلدة ــ وهي قريبة من عقوبة الزنى.

٢ ــ عقوبة نفسية واجتماعية: بإسقاط شهادته واعتباره.

٣ ــ عقوبة دينية: بأن يوصم بالفسق.

وهكذا نرى أن عقوبة القاذف لا تقل عن عقوبة الزاني.. وفي ذلك تعليم وبيان أن زلة اللسان تقارب جريمة الزنى.. وكما قال رسول الله ﷺ فإن أكثر ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق. وأكثر ما يدخل النار الفم والفرج. وقد يكون القاذف صادقاً ولكن كان عليه أن يسكت ويستر ما رأى ــ خاصة إن لم يكن معه شهداء ــ فإن الحديث في هذا الأمر جهر بالسوء وله أضراره الكثيرة.

ويفتح الله باب التوبة أمام العائدين.. وكل بني آدم خطاء.. وخير الخطائين التوابون.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾:

تابوا عن القول والفعل.. فأصلحوا حالهم وأعمالهم. فمن أذنب سراً فليتب سراً وأما إذا ظهر الذنب من العبد فلا بد من ظهور التوبة وإعلانها. أما من أبى أن يعترف بذنبه وعجز عن مواجهة أخطائه فقد حرم من بركات التوبة.. وإن التوبة لتغسل القلوب وتجدد حياة النفوس فيغدو الإنسان وقد تخفف من آصاره ونشط من عقاله.

فهل يعفى القاذف من العقوبة إن تاب وأصلح؟

أما العقوبة الأولى فقد اتفق العلماء على عدم إعفاء القاذف التائب من الجلد. واتفقوا أيضاً على عدم جواز وصم التائب بالفسق ــ أي أنه يعفى من العقوبة الثالثة ــ وحصل الخلاف في الثانية. فبعضهم رجح أن تقبل شهادة القاذف التائب ــ ومنهم الإمام ابن حنبل ــ وبعضهم رجح أن لا تقبل شهادته بعد ذلك أبداً ــ ومنهم الإمام أبو حنيفة وأبو الأعلى المودودي ــ

ودليلهم أن الآية جاءت بصيغة الأمر بالنسبة للجلد وعدم قبول الشهادة.. بينما قال عن الثالثة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾. ثم لما تحدث عن الذين تابوا وأصلحوا ما زاد على أن قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾، وكأن التوبة تعفي من جزاء الآخرة.

وينبغي أن نلاحظ أن القاذف إن كان شاهداً فإنه يحتاج إلى ثلاثة يشهدون معه. أما إذا لم يشهد هو الفعلة فيحتاج إلى أربعة شهداء.

بعض الحكمة من حد القذف:

١ ــ إن القرآن قد وضع قيوداً ثقيلة للحديث عن هذا الموضوع حتى تنمو الحاسة الخلقية عند الفرد ويصان المجتمع من إشاعة الفحشاء بكثرة الحديث عنها. وإن الجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام.

٢ ــ في هذا الحكم صيانة للأعراض من التهجم وحماية لكيان الأسر وكيان الأمة من التزعزع. وتحقيقاً لأمر الله في التثبت من التهمة قبل أقامة الحد كي يقوم العدل. وقد ورد عنه ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[(١)] .

٣ ــ قد يكون القاذف صادقاً ولكن لم يتيسر له الشهود. ولكنه مستحق لهذه العقوبة. فقد كان عليه أن يسكت ويستر صيانة للمجتمع من إشاعة السوء. وفي ذلك تأديب اللسان أن لا يتكلم إلاَّ بعد تفكر فيما ينفع الناس وبعد تأمل للعواقب كيف ستأتي.. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾[(٢)] .

(١) في سنن أبي داود.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٠ و ٧١.

وقبل أن نترك الموضوع.. أقول إن للحاكم أن يتخذ بعض الإجراءات التي يجتهد فيها لحماية المجتمع من مواضع الفتنة.. قياساً على ما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. فقد أخرج النبي ﷺ المخنثين من المدينة لضررهم على الرجال والنساء.. ونفى عمر نصرَ بن حجاج من المدينة إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به. وقال بعض السلف: الغناء رقية الزنى. ـ ورقية الحية هي ما تستخرج به الحية من وكرها ـ وقالوا في تفسير الآية: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك» يستفزهم بالغناء.. ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه عن الغناء : أمزامير الشيطان؟. والمقصود بالغناء ما كان شعره ماجناً يهيج الغرائز.. ولهذا قال بعض العلماء: يباح من الغناء ما يباح من الكلام.

٤ ـ اللعان:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾:

بعد نزول آيات القذف.. تساءل المسلمون كيف يكون الحال إن رأى الرجل السوء في أهله..؟! ولعل أول من تساءل سعد بن عبادة. ثم وقعت حوادث جعلت رجلاً من الأنصار يأتي رسول الله ﷺ ويسأله «يا رسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً.. إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: اللهم احكم»[١].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وما لبثوا إلاَّ يسيراً حتى جاء هلال بن أمية إلى الرسول ﷺ فقال: (يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني). فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه وقال: «البينة وإلاَّ حد في ظهرك» فاجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة.. الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس. فقال هلال: (والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً)، وقال لرسول الله ﷺ: (فإني أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق).

يقول ابن عباس ــ راوي الحديث ــ (فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذا أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...﴾)[1].

فلما نزلت الآيات قال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال ﷺ: «أرسلوا إليها». فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليها وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها. فقالت: كذب. فقال ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فشهد هلال أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. فلما كانت الخامسة قيل لهلال: يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب العذاب. فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها. فشهد الخامسة.. ثم شهدت المرأة أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. وقيل لها عند الخامسة مثل ما قيل لهلال..

---

(١) رواه البخاري وأحمد.

فتلكأت ساعة ثم قالت: والله لا أفضح قومي. ثم شهدت الخامسة. ففرق رسول الله ﷺ بينهما. وقضى أن لا يدعي ولدها لأب ولا يرمىٰ ولدها.. ومن رماه فعليه الحد ــ حد القذف ــ وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها ــ أي لا نفقة ــ وإن توفي فليس لها منه شيء[1].

هـذه الحـوادث تكشـف لنـا إلـى أي مـدى ارتقـى الإسـلام بـالإنسـان الجاهلي الذي يستهين بسفك الدماء ويقتل لأتفه الأسباب.. حتى أصبح إنساناً منضبطاً يمسك زمام نفسه وأعصابه حتى وهو يرى الخيانة في أهله.. خوفاً من غضب الله.

نتائج اللعان:

١ ــ إذا لاعن الزوجان لا يستحق أحدهما شيئاً من العقوبة.

٢ ــ إن كان الرجل منكراً لولد المرأة ألحق الولد بها ولا يدعىٰ إليه ولا يرثه وإنما يرث أمه وترث منه.

٣ ــ لا يجوز لأحد أن يقول عن المرأة أنها زانية ولا عن ولدها أنه ولد زنىٰ. فإن فعل أقيم عليه حد القذف.

٤ ــ لا يسقط عن الرجل مهر المرأة. ويدل على ذلك أن رجلاً تلاعن مع امرأته عند رسول الله ﷺ. ثم قال الرجل: يا رسول الله.. مالي؟ فقال ﷺ: «لا مال لك. إن كنت صدقت عليها فهو بمااستحللت من فرجها وإن كنت كذبت فذلك أبعد لك منها»[2].

٥ ــ لا نفقة ولا بيت للمرأة على الرجل.

٦ ــ تحرم المرأة على الرجل حرمة مؤبدة. إلاَّ إذا عاد فاعترف بأنه قد كذب عليها فيقام عليه حد القذف ويجوز له أن يطلب الزواج منها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بنحوه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

٧ ـ إذا رفض الزوج متابعة الملاعنة يحبس حتى يتمم أو يعترف بأنه كاذب فيقام عليه حد القذف.

٨ ــ إذا رفضت المرأة الملاعنة تحبس حتى تلاعن أو تعترف بالزنىٰ فتُحدُّ.

وأما شروط إجراء اللعان فهي:

١ ــ لا يثبت اللعان إلاَّ في المحكمة. (مثل الشهادة).

٢ ــ أن يكون الزوج عاقلاً بالغاً. يقول الشافعي: (كل من يصح يمينه ويجوز له أن يطلق زوجته من الوجهة القانونية يصِحُ له اللعان). أما الحنفية فلا يجوز اللعان عندهم إلاَّ بين زوجين:

١ ــ مسلمين. ٢ ــ غير محدودَين في القذف من قبل. ٣ ــ لم تقترف الزوجة الفاحشة من قبل.

٣ ــ أن يطالب به أحد الزوجين. فللمرأة أن تطالب باللعان إذا اتهمها زوجها أو أنكر ولدها.

ولا ننسى التوجيهات التي أحاطت هذا الموضوع بالترهيب ووصايا رسول الله ﷺ بالتقوى والتروي قبل المبادرة بالاتهام.. منها:

ــ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود!! فقال ﷺ: «هل لك من إبل». قال: نعم. قال ﷺ: «فما لونها»؟ قال: حمر. قال ﷺ: «فهل منها من أورق؟» ــ أي رمادي ــ قال: نعم. قال ﷺ: «فأنى أتاها ذلك؟». قال: نزعة عرق. قال ﷺ: «فهذا عسى أن يكون نزعة عرق» ولم يرخص له في الانتفاء منه[1].

---

(١) رواه الشيخان.

ـ وجاء التحذير للنساء: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته. وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عنه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأشهاد من الأولين والآخرين»[1] .

ـ وإذا كان اتهام الرجل لزوجته عند الحاكم غير واضح وبشكل كناية.. فلا يطالب بالتوضيح أو بإجراء اللعان. ولكن ينصح بالتروي والتبصر وحسن الظن.

التعقيب على الحكم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ...﴾:

وجواب (لولا) محذوف ترك لتصور الإنسان.. فكيف تكون حياتكم لولا فضل الله عليكم بهذه الأحكام؟!

﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

تواب: لمن رجع إليه. حكيم: حين وضع هذه الأوامر في مكانها المناسب عن علم ومعرفة.

وقد نتساءل: لِمَ لمْ ينزل الله الاستثناء من حكم القذف ـ باللعان ـ إلّا بعد وقوع هذه الحوادث؟ ألم يعلم سبحانه أن ذلك سوف يحدث؟!

إن حكمة الله تقتضي أن ينزل التشريع عند الشعور بالحاجة إليه. وعند ذلك يتحقق إدراك الناس لما فيه من حكمة ورحمة.. فإن من يخوض المحنة يدرك نعمة الإنقاذ أكثر.. وهذه بعض الحكمة من نزول القرآن منجماً..

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والدارمي.

سُئِلتُ هل للمرأة أن تلاعن زوجها إن ضبطته في حالة زنىٰ؟

لم يحدث أن طلبت ذلك إحداهن في مجتمع الرسول والصحابة.. فهل موضوع اللعان يمكن أن يشمل الطرفين؟ هذا يحتاج إلى بحث واجتهاد..

وأنا لا أقدم هنا جواباً قاطعاً أو فتوى.. ولكن أسجل بعض الملاحظات.

١ ـ ليس الدافع أو المبرر لحكم اللعان هو الرغبة في الانتقام والتشهير.. وذلك أنه بعد إجراء الملاعنة لا يجوز لأحد أن يقول عن هذه المرأة زانية. ومن فعل جلد حد القذف.. وبالتالي فإنه لا يسمح للمرأة أن تشهر بزوجها.. والتوجيهات كلها في هذا المجال توحي بأهمية ضبط اللسان وستر العورات.. «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك»

٢ ـ ربما كانت حاجة الرجل إلى الملاعنة أكثر من المرأة وذلك أنه ملزم بالإنفاق على زوجته وأولاده.. فكيف يلزم بإلحاق ولد بنسبه والإنفاق عليه وهو يعلم أنه ليس ولده.؟

٣ ـ في مثل هذه الأحوال غالباً ما تفضل المرأة السكوت والصبر على زوجها من أجل أولادها حتى لا يتشتت شملهم ويفقدوا حنان أمهم وإشرافها.. وهو موقف تشكر وتؤجر عليه.. لكن لا يجوز لأحد أن يرغمها عليه.. فلها أن تخالع زوجها إن نفرت منه.. وإن من حقها أن تترك حياة في بيت لم يحقق لها الأمن والسكن.. وفي الحقيقة إن الملاعنة في مثل هذه الحالة لا تعطيها مزيداً من المكاسب.

ومما لا شك فيه أن البون شاسع بين الوضع الإسلامي السليم الذي نطمح إليه وبين الواقع الاجتماعي الذي نعيشه والذي يفرض على المرأة

ضغوطاً قد تصل بها أحياناً إلى حد الانسحاق... وليس الإسلام هو المسؤول عن ذلك.. بل إنه التراجع إلى قيم الجاهلية وتحكيم منطق القوة.. فالأقوى له كل شيء والأضعف عليه أن يسكت على كل شيء.. إن الإسلام بريء من كل هذا الظلم.. ولسوف تسألون.

• • •

٢ ـ قصة الإفك

سبب النزول:

وحادثة الإفك مشهورة في كتب الحديث.. روتها السيدة عائشة. وقد اخترت الرواية التي أثبتها الحافظ ابن كثير في تفسيره للآيات. قالت عائشة رضي الله عنها:

[كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جذع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على البعير الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن ولم يغشهنَّ اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام. فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه،

وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون لي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطىء على يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم»؟ . . . حتى خرجت بعدما نقهتُ، وخرجتْ معي أم مسطح قِبَلَ المناصع وهو متبرَّزنا ولا نخرج إلاَّ ليلاً إلى ليل. وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب. . وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب. فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح، قِبَل بيتي حين فرغنا من شأننا. فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئسما قلتِ تسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي

رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بها، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلاَّ خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبز. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علْمت على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيراً ما كان يدخل على أهلي إلاَّ معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان مْن إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير ــ وهو ابن عم سعد بن معاذ ــ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله

لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ. قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذا استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي. فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل.. وقد لبثت شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتىٰ ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصنعون» قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.. وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى. ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله

بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسِّري عن رسول الله وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك»، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاَّ الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي. وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ . . . ﴾ العشر الآيات كلها. فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. . فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ . . . ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني أوحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة. . وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال: «يا زينب ماذا علمت ورأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلاَّ خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك][1] .

وعن عائشة أنه لما نزلت هذه الآيات [قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم][2] . أي حد القذف. وهم كما تسميهم روايات أخرى: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري.

(٢) رواه الإمام أحمد.

وقفة مع هذه الحادثة:

هذه الفرية سببت الآلام للمجتمع المسلم وبشكل خاص الأشخاص الذين مست بهم بشكل مباشر:

١ ــ **السيدة عائشة**: الفتاة الطيبة الطاهرة ــ وهي بعد في السادسة عشرة من عمرها تقريباً ــ نشأت في حضن الإسلام وتفتحت في بيت النبوة.. فإذا بها وهي بريئة غافلة.. وهي في تلك المكانة المقدسة من المجتمع ترمي بشرفها وأمانتها ووفائها وإيمانها..!!

تفاجأ بأن يخوض الناس في مثل هذا الحديث عنها.. ثم تلمس أن الرسول ﷺ لا يستقين من طهارتها.. فهو إنسان زوج يتأثر من هذه الحملة.. ولا يسعفه الوحي لمدة شهر.. وتلتفت إلى أبويها تستنجد بهما فليتزمان الصمت.

٢ ــ **أبو بكر**: وهو من هو في الإسلام «ثاني اثنين في الغار». يرمي في عرضه وفي طهارة ابنته.. فيفيض الألم به ويقول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية أفنرضى به في الإسلام..؟!

ويصبر ويتماسك وينتظر حكم الله، لأنه يعلم أن دفاعه عن عائشة لن يبرئها لأنه في نظر الناس أب.. ومَنْ من الآباء لا يدافع عن ابنته.!!

٣ ــ **أم رومان**: أم عائشة.. المرأة الصالحة التي قال عنها ﷺ: «من سره أن ينظر إلى امرأة من أهل الجنة فلينظر إلى أم رومان».. ترمىٰ في فلذة كبدها وتلوك الألسنة عرضها.. والأم ألصق الناس بابنتها يلحق بها ما يخدش ابنتها.. ومع ذلك تتجلد وتهدىء من روع ابنتها.. لكنها لا تملك أن تدافع عن ابنتها.. وماذا يجري دفاعها..؟!

٤ ـ **صفوان بن المعطل**: الصحابي الطاهر المجاهد يرمىٰ في دينه ويتهم بخيانة أحب خلق الله إليه نبيه وقائده وقدوته.. فيقول: سبحان الله..! والله ما كشفت كتف أنثى قط.. ويدفعه الألم إلى ضرب حسان بن ثابت ـ أحد الذين خاضوا بالإفك ـ بالسيف حتى كاد يقضي عليه.. مما يدل على أن الألم قد جاوز كل حد..

٥ ـ **رسول الله ﷺ**: النبي القائد الذي يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» يرمىٰ في بيته وعرضه وفي أحب الناس إليه.. فهو حين يرمىٰ بعائشة يرمىٰ بكل شيء.. في شرفه ونبوته وصدق رسالته.. ويسكت الوحي شهراً كاملاً لحكمة عظيمة يريدها الله.. والناس يتحدثون.. ومحمد ﷺ الإنسان يعاني من الآلام ما يعاني من خوض الناس في عرضه.. وانقطاع الوحي عنه.. ولا يملك أن يضع لهذا حداً.. فلو دافع عن عائشة لقيل: زوج يدافع عن عرضه.. وقد كان يملك بإشارة من إصبعه أن ينتقم من الذين سببوا له كل هذه الآلام.. لكنه ﷺ يصبر ويتأني في التفكير بحل لهذه المحنة.. فيستشير أسامة وعلي ويتأكد منْ الجارية.. ويصعد إلى المنبر والقرائن كلها تشير إلى براءة أهله فيطلب من الناس أن يعذروه في عقاب من افترى هذه الفرية.. فتحدث المناوشة بين المسلمين من الأوس والخزرج وهم في المسجد!! ورسول الله ﷺ ما زال على المنبر..!! مما يدل على شدة التوتر الذي أحدثته هذه الفتنة حتى كاد المسلمون يتهاوون أمامها ويقتل بعضهم بعضاً.. فأي ألم أعظم في نفسه ﷺ من أن يرى كيان هذه الأمة التي سهر وجهد في بنائها.. يهتز حين خدشت قداسة القيادة.. فلا يجد أمامه من حل إلاّ مصارحة عائشة وطلب البيان منها.

حقاً لقد كانت هذه الحادثة تجربة عملية للمجتمع المسلم وضحت

فظاعة جريمة القذف وشدة ضررها في المجتمع.. وأكدت ضرورة إلجام الألسنة بالتقوى وفرض العقاب على القاذف في الدنيا والآخرة.

شـرح الآيـات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ... ﴾:

الإفك: هو الكذب والافتراء. والعصبة: هي فرقة متجمعة ذات هدف واحد.

والذين خاضوا من المسلمين بالإفك هم: اثنان من المنافقين: عبد الله بن أبـي سلول. وزيد بن رفاعة. وثلاثة من المسلمين: مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. وأقيم الحد على الثلاثة المؤمنين فقط.

﴿... لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾:

وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبـي بن سلول الذي قال لما رأى صفوان يقود الجمل بعائشة: (والله ما نجت منه وما نجا منها).. ولقد كان من الدهاء بحيث أنه أشاع الفرية بالدس والهمس ولم يثبت عليه قول صريح يوجب الحد. فبقي له تهديد الله وعذابه العظيم في الآخرة.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ وفي ذلك تخفيف عن المسلمين وتنبيه لهم كي يتدبروا نواحي الخير في هذه الحادثة.. إنه التربية القرآنية الفذة التي تعيد السكينة إلى نفس المؤمن أمام الأحداث.. وتحرك عقله كي يتملى ويحيط بالأمر من جميع جوانبه فيتعلم ويستفيد.. ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ ﴾.. وأمر المؤمن كله له خير

في السراء والضراء.. فالمحنة إن علمتك شيئاً جديداً.. أصبحت نعمة.. والهزيمة إن كشفتَ أسبابها أصبحت نصراً.. وكما يقولون (المحنة إن لم تقض عليك، زادتك قوة).

فهل استطاعت أي عقيدة أخرى أو أية مبادىء أو مناهج.. أن تنشىء مثل هذه الشخصية المتوازنة المتماسكة أمام صدمات الحياة.. كما أنشأ القرآن هذه النفوس المؤمنة.؟!

لقد أراد المنافقون بهذه الفرية:

١ ــ الطعن في عرض النبي ﷺ وأبي بكر.

٢ ــ الحط من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية.

٣ ــ إشعال نار الفتنة في المجتمع الإسلامي.

فنزلت الآيات:

١ ــ ببراءة عائشة رضي الله عنها.

٢ ــ وكشف المنافقين وخططهم.

٣ ــ ورسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذه الأمور.

٤ ــ وأنزل أوامر وتوجيهات جديدة من شأنها أن تحمي المجتمع من الفاحشة.

٥ ــ وعلمتهم الآيات أن المشكلة في أخطاء المسلمين وليست في كيد عدوهم وأنهم حين يقومون بسد الثغرات في أخلاقهم وأعمالهم.. فإن كيد عدوهم لا يضرهم بشيء بل قد يزيد من خبراتهم وإدراكهم الواعي للأمور.

وبذلك تتبين لنا بعض مظاهر الخير في هذه الفتنة.. وجاءت أحكام سورة النور بمزيد من الطهارة الأخلاقية والتماسك الاجتماعي للأمة المسلمة.

وتوجه الآيات المؤمنين لأن يطلبوا الدليل باستفتاء القلب أو الضمير:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا...﴾:

إن المؤمن لبعده عن الخطايا عندما يفكر في البهم لا يصدق أن يفعل غيره من المؤمنين مثل هذه الخطيئة لأنه يحسن الظن بنفسه وبإخوانه. روي أن أبا أيوب الأنصاري قالت له امرأته: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك[1].

إن أساس الروابط الاجتماعية في المجتمع: الظن الحسن بين الناس. والأصل في كل مسلم أن يكون عفيفاً ما لم يقم الدليل على جرمه. ولا خير في مجتمع ضاعت الثقة فيه بين الأفراد.

ثم توجه الآيات إلى طلب الدليل الخارجي وهو الشهداء:

﴿لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ولقد سبق الإنذار من الله للناس أن على القاذف أن يأتي بأربعة شهداء. لكن هؤلاء قد خالفوا وغفل المؤمنون عن مطالبتهم بذلك كما غفل بعضهم عن استفتاء ضميره.

والقاذف هنا لم يرَ فاحشة بعينه.. وكل الذي رآه هو أن صحابياً جاء يقود بأم المؤمنين بعده في وضح النهار وأمام الجيش كله خشية عليها من التخلف والتعرض لأذى.. ومجيئه هكذا أكبر دليل على طهارتهما. وكل الدلالات كانت تشير إلى كذب هؤلاء المفترين.. وليس فقط فقدان الشهود والله العليم يشهد بكذبهم ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(١) ذكره ابن كثير.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾:

والإفاضة في الكلام هي الخوض والتوسع.

انظروا إلى رحمة الله بكم وفضله عليكم.. فقد خضتم في أمر كان من شأنه أن يودي بكم إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة.. ولكن الله قلب العواقب إلى ما فيه خير لكم حين تدارككم بالتوجيه والتعليم في هذه الآيات.

ثم يرسم صورة منفرة لهؤلاء الذين خاضوا.. كيف كانوا يتلقون الخبر:

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ... ﴾:

لسان يتلقىٰ عن لسان دون تدبر وفهم.. حتى كأن القول لا يمر على الآذان ولا يقف عند القلوب والعقول.. إنما هو قول من الفم لا من الوعي والإدراك.

في الآية نهيان:

١ ـ نهي عن التكلم بكل ما يسمع الإنسان من كلام. وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

٢ ـ ونهي عن القول بدون علم. فاللسان نعمة لا ينبغي أن توظف إلاَّ للحق والخير.

والكلام مسؤولية تحتاج إلى تأني وتأمل وتثبت. فليس لك أن تتكلم بدون علم.. والعلم رؤية الدليل والبرهان. ولهذا يعتبر الصمت والسماع مرتبة أولى في العلم. لأن من كثر لغطه كثر غلطه.. ورحم الله من قال: أنصف أذنيك من لسانك.. (فاسمع ضعف ما تتكلم).

﴿... وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا...﴾:

أن تسببوا كل هذا الأذى للنبي وزوجه والمسلمين؟! وتذيعوا خبراً لا علم لكم بحقيقته.. وأي خبر أخطر من مثل هذا الخبر؟!

﴿... وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾:

فأمر الفاحشة والاتهام بها ليس هيناً.. بل يعتبر بحسب العقوبة التي حددتها الشريعة ثاني الجرائم الكبرى ـ بعد القتل ـ.. ولقد أهلك الله قوماً بأسرهم ورجمهم بالحجارة من السماء على ارتكابهم الفاحشة.. والآية هنا تعتبر المشاركة في نقل الأخبار دون التثبت من حقيقتها ذنباً عظيماً عند الله. وينبغي أن يتعلم الإنسان كيف يجعل من أذنه مصفاة تغربل أحاديث كثيرة وتهملها إما لعدم معقوليتها.. أو لإضرارها بالناس ـ ولو كانت صادقة ـ.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾:

كان هذا هو الأجدر بكم.. فإن المؤمن ينزه نفسه عن مثل هذا الخوض.. في هذا الافتراء الكبير.. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ ننزهك عن أن تلحق بأنبيائك هذا الهوان.. ننزهك عن أن يدعو أنبياؤك إلى أمر لم يحققوه في بيوتهم وأسرهم.. ألا وهو مكارم الأخلاق.

ويأتي التحذير الشديد بعد هذا اللوم:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾:

وتأتي هذه الموعظة رحمة من الله في وقت أصبحت فيه القلوب واجفة ترتجف خوفاً من نزول عقاب الله... ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ فهل

أنتم حريصون على البقاء في صف المؤمنين وحزبهم؟! كفوا ألسنتكم إذن عن أعراض الناس. «ألا إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام بينكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1]. وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم؟.

ويأتي التعقيب ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ...﴾:

فيظهر لكم الحقائق ويكشف لكم عن عواقب الأخطاء التي ارتكبتموها.

﴿... وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾:

يعلم النوايا والأهداف.. ويعلم ما يضركم وما ينفعكم فيشرع لكم ما فيه الخير والوقاية والعلاج.

وتلتفت الآيات إلى الفئة الماكرة لتهددها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾:

والآية تهدد كل من يحاول إشاعة الفاحشة بأية وسيلة من الوسائل:

١ ـ كالخوض بأعراض الناس واتهام المصلحين وتجريح سمعتهم لتحطيم معنويات الناس.

٢ ـ أو بإنشاء دور الفاحشة.. أو دور اللهو التي تجر إلى الفاحشة.

---

(١) راجع خطبة حجة الوداع. ونرى في هذه الوصية ـ وفي تشريع حد القذف ـ أن الإسلام قد حقق للفرد ضمانات اجتماعية على مستوى عال تجعل الفرد يتمتع بكرامة إنسانية لا يوفرها له أي مجتمع آخر.. وفي وقت مبكر ـ تاريخياً ـ.

٣ ـ أو بتوجيه الفن والأدب نحو إثارة الغرائز.. وتزيين الانغماس فيها (الروايات والشعر والغناء...).

٤ ـ أو باستخدام وسائل الإعلام بشكل يتدرج الناس إلى الفاحشة..

هذه الأفعال جرائم بحق المجتمع ولا بد أن تعرض صاحبها لعقوبات دنيوية ـ عدا عن عقوبة الله في الآخرة ـ وعلى الحاكم المسلم أن يعاقب عليها بعقوبات زاجرة تردع هؤلاء عن شرورهم.

﴿... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

فالله يعلم مدى تضرر المجتمع بمثل هذه الأعمال.. ويعلم النوايا الخبيثة عند هؤلاء الذين يلبسون قناع الإسلام ويحاولون الطعن من الداخل.. إنه يعلم ما لا تعلمون ويقيكم الشرور ويحيطكم بحدود آمنة.. فتذكروا فضل الله واشعروا بالنعمة الكبرى في هذه الأحكام. ولهذا يكرر للمرة الثانية:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾:

ويقف ابن تيمية عند هذه الآيات فيدخُل في هؤلاء ـ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ـ صنفاً آخر هم:

الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. لأنهم بذلك يساهمون في إشاعة الفاحشة.. لكن ينبغي أن نلاحظ أنهم لا يشترط أن يكونوا جميعاً من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فقد يكون تركهم الأمر بالمعروف ناتج عن ضعف وتخاذل.. وابن تيمية يذكر مراتب للإيمان فيقول إن من هجر المعاصي وصل إلى درجة المهاجرين.. لكن إن لم يأمر بالمعروف لم يصل إلى درجة المجاهدين. فقد يكره الإنسان المنكر..

ولكن يكره أن يقوم بالنهي عنه ـ وهو الجهاد ـ خوفاً على مصالحه. وإن الجهاد عمود الإسلام.. وقد هدد الله من فضل شيئاً من الدنيا على الجهاد ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ... ﴾:

في هذا التوجيه تحذير وإثارة لانتباه المؤمنين حتى يتبينوا ما يقومون به من أقوال وأعمال.. فما أفظع أن ينساق الإنسان مستسلماً وراء عدوه حتى يورده الهلاك.. وإن الشيطان يستدرج الإنسان وراءه خطوة خطوة.. وإن الانحراف بدرجة واحدة يبعد خطي الزاوية.. وكما أن الخطأ في الرياضيات ـ مهما كان بسيطاً ـ يؤثر في النتائج.. وكذلك الخطأ في الحياة الاجتماعية.

﴿ ... وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ... ﴾:

ولقد أنعم الله على الإنسان بإعطائه القدرة على التمييز بين الخير والشر والقدرة على تطهير النفس وتزكيتها.. ولهذا يأتي التذكير بفضل الله ورحمته للمرة الثالثة:

﴿ ... وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ... ﴾:

ومشيئة الله في تزكية الناس تتم وفق سنة.. فمن سعى إلى تزكية نفسه أعانه الله.. وعلم الله واسع بمن يستحق التطهير.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

﴿ . . . وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ :

وتمضي الآيات في المعالجة . . فتضمد الجراح وتلملم الشعث وتمسح الألم من القلوب :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ :

وقد نزلت في أبي بكر حين قال عن مسطح ـ وكان ينفق عليه لفقره وهو من أقربائه ـ : (والله لا أنفعه بنافعة أبداً) . فمسحت الآية الكريمة الألم عن قلب أبي بكر ورفعته إلى مرتبة عالية بهذا السؤال :

﴿ . . . وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ؟ . . . ﴾ :

فيسارع في الاستجابة قائلاً : (بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا) . ثم يعيد النفقة إلى مسطح ويقول : (والله لا أنزعها منه أبداً) . ويكفر عن يمينه الأول . وكان حسان بن ثابت يدخل بعد ذلك على عائشة رضي الله عنها فتكرمه ، فيتعجب الحاضرون . . فتقول عائشة رضي الله عنها إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ[١] .

وما أجدرنا أن نقف لنتأمل هذه الدعوة الحبيبة من الرحمن لعباده . . إلى العفو والتسامح فيما بينهم . . إن الله يعالج القلوب ويداوي الجراح ويصلح بين عباده . . فهل تدبرنا ذلك ؟

يقول ﷺ : «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين . فإن إفساد ذات البين هي الحالقة . لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[٢] .

---

(١) ذكره ابن كثير .

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود .

فكيف تتلاحم الأمة إذا كانت القلوب متنافرة متباغضة..؟! وكيف تتماسك الأمة أمام أعدائها ـ الذين تألبوا عليها من كل حدب وصوب ـ إن لم تكن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً..؟! إن الإصلاح بين المؤمنين وإعادة ربط القلوب برباط المحبة في الله.. أمر في غاية الأهمية.. حتى أن رسول الله ﷺ رخص بالكذب في سبيل الإصلاح بين الناس.

والآية تذكرنا بحقيقة هامة كثيراً ما نغفل عنها.. فالله ينادينا: امنح العفو لأنك محتاج إلى من يعفو عنك.. وهل تظن أنك منزه عن الأخطاء..؟ إنك عبد خطاء مع الله ومع الناس.. وإنك محتاج إلى مغفرة الله وعفو الناس.

وهكذا مسح الله آثار المعركة من النفوس.. وأعاد الحب والرحمة إلى القلوب.. وخرج المجتمع المسلم من الفتنة وقد ازداد نقاء وضياء.. كما يخرج الذهب الخالص عند تعريضه للنار. ورد الله الذين نافقوا بغيظهم لم يزدادوا إلاّ فضيحة وإثماً. كل هذا من فضل الله ورحمته التي تكرر التذكير بها أثناء الآيات، ولقد كان هذا التلويح بالعفو والغفران لمن تاب عن رمي المحصنات واعترف بذنبه. أما الذين يتقصدون العورات ويلوكون الأعراض.. فلهم الوعيد بسوء الجزاء:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾:

والغافلات هن البريئات اللواتي لا يخطر لهن أن يرمين بمثل هذه التهمة لطهارة نفوسهن. والكلمة هنا ليست للمدح.. فما ينبغي للمؤمن أن يكون غافلاً.. ولكن المؤمن كيّس فطن.. يسعى إلى الحكمة بالانتباه إلى

عواقب الأمور في كل شيء.. ولكن الكلمة هنا تقرر حقيقة ما حصل.. وما يمكن أن يحصل كثيراً كلما تصرفت المؤمنة بعفوية وبراءة في غير مكانها.. ويأتي الترهيب من القذف هنا ببيان الجزاء.. وهو اللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم. فإن أفلتوا من عقاب الدنيا لمكرهم.. فكيف يفلتون من محكمة الآخرة.. يوم تأتي الشهود لتشهد عليهم:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾:

عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «أتدرون مم أضحك»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلاَّ من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً. فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي.. فتنطق بعمله. ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل»[1].

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ... ﴾:

أي حسابهم العادل.

﴿ ... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾:

وعندها يستيقنون مما كانوا يستهينون به.. وقبل أن يختم الموضوع يقرر قاعدة:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ... ﴾:

---

(١) رواه مسلم والنسائي وابن أبي حاتم.

قيل في معناها: الخبيثات من الكلام والأقوال للخبيثين من الرجال. والعكس بالعكس. والأولى أن تكون: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال. فإن النفوس الخبيثة لا تتلاءم إلاّ مع مثلها.. والنفوس الطيبة لا تتمازج إلاّ مع من يماثلها. والنبي الطيب الطاهر قد أحب عائشة الطيبة الطاهرة حباً عظيماً وهذا دليل واضح على طهارتها. علينا أن نتروى أمام التهم التي يروجها الناس.. فإن التهمة تكون على درجات بحسب مستوى المتهم.. فقد تكون التهمة قريبة جداً من الإنسان وقد تكون بعيدة جداً عنه (وأحياناً نعبر عن ذلك بقولنا: لو رأينا بأعيننا لما صدقنا). وبين هاتين الدرجتين مراتب في القرب والبعد بحسب سلوك المتهم وبيئته. والتهمة هنا بعيدة جداً عن عائشة الطاهرة في سلوكها وأقوالها.. وهي زوجة أطهر رجل ومن أطهر البيوت والأسر.

ولنا أن نلاحظ أن هذه القاعدة «الطيبات للطيبين» لا تتحقق إلاّ في المجتمع الصالح الذي يطبق دين الله ويؤسس أسرة على الأساس الذي أمر به الله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾. أما المجتمع الفاسد فقد يوجد فيه أفراد صالحين وزوجاتهم فاسدات ــ مثل امرأة نوح ولوط ــ وقد توجد المرأة الصالحة في ظل زوج فاجر مثل امرأة فرعون.

بعض العبر والفوائد من هذه الحادثة:

١ ــ المحنة والابتلاء سنة الله في هذه الحياة لكشف حقيقة الإيمان والالتزام بأمر الله. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢؟!﴾[(١)].

٢ ــ البلاء فيه صلاح الدنيا لأنه يجعل المؤمن يتعلم من أخطائه

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢.

ويستنفر ذكاءه وطاقاته لإيجاد الحلول. هذا عدا عن الأجر في الآخرة. وفي ذلك تدريب للمؤمن على رؤية جانب الخير في كل ما يعرض له مما يمنحه تماسكاً وصلابة أمام أحداث الحياة.

وعلى هذا فإن البلاء لا يكون في كل الحالات عقوبة. والنعم لا تكون دليلاً على رضىٰ الله. ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. ومن الضروري التمييز بين أنواع المصائب.. حتى ندرك ما كان منها ناتجاً عن ذنب فردي أو ذنب جماعي.. أو قدر إلهي للتمحيص. كي يمارس المؤمن التوبة والتصحيح.

٤ ــ على المؤمن أن لا يطمئن لمكانته فمهما علا مقام الإنسان فإنه معرض للتهم.. بل إنه معرض لها أكثر.

٥ ــ وفي هذا الحادث مواساة وتخفيف عن كل من وقع في شدة. فإن له في رسول الله ﷺ وفي أم المؤمنين عائشة.. وفي الصحابة أسوة حسنة. فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأقرب...

٦ ــ المؤمن يغلب الظن الحسن لأنه ينظر للناس من خلال طهارة نفسه. وأما المجرم فإنه يظن السوء بالناس ولا يثق بهم. وليس معنى ذلك أن يكون المؤمن ساذجاً مغفلاً.. بل يحذر ويتخذ الأسباب اللازمة رغم ظنه الحسن. كما قال عمر: (لست بالخب. وليس الخب يخدعني).

٧ ــ علمتنا الآيات أن الضعف الداخلي أشد خطراً علينا من العدو الخارجي. وهذا ما ينبغي أن يكرس له الجهد.. خلافاً لما تعودنا في عالمنا من إضاعة الوقت والجهد بالتنديد بالأعداء...

٨ ــ المجتمع المدني كان من السمو والطهارة بحيث اقتصر فيه الخوض في هذا الأمر على خمسة أشخاص.

٩ ـ إن المجتمع المثالي ليس هو الذي لا تحدث فيه فتن وأخطاء. . وإنما هو الذي لا يجد الفساد فيه نمواً بل يقضي عليه. كما أن الأسرة الصالحة تحدث فيها خلافات ومشاكل ولكنها تعرف كيف تجد حلاً.

١٠ ـ في ذلك تنبيه للمسلم أن يبتعد عن مواضع الشُّبه حتى تكون التهمة بعيدة التصديق وتنبيه للمرأة المؤمنة أن تكون على حذر في كل أوضاعها. . فمجتمعنا أسوأ بكثير من المجتمع المدني الأول. ونحن أقل من عائشة. . ولا ننسى حرص الرسول ﷺ على الوضوح والبعد عن الشبه. (مثال ذلك عندما كان يسير مع إحدى زوجاته فمر به رجلان فناداهما قائلاً: «هذه أمكم صفية». .).

١١ ـ أهمية ضبط اللسان وخطورة الخوض في الكلام بدون علم. . ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ ولعمري لقد كان الدرس بليغاً في هذا الشأن. . أنسيتم الجريمة الكبرى لأصحاب سقر ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥﴾[(١)] .

١٢ ـ كان تصرف السيدة عائشة لا يخلو من البراءة إلى درجة الغفلة ـ ولهذا قالت الآية: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ ومن الواضح أنها ليست للمدح ـ وكان الأولى بها أن تخبر أحداً من العسكر بأنها ذاهبة في طلب عقدها. ولهذا ستأتي في آخر السورة أحكام الاستئذان عند الأمر الجامع.

١٣ ـ إن كشف أخطاء الصحابة لا يعني الحط من قدرهم. بل ينبغي أن ننظر إليهم على أنهم بشر مثلنا وهذا من شأنه أن يزيل الحاجز بيننا وبينهم ويجعلنا أقدر على التأسي بهم. والكمال والتقديس لله وحده.

---

(١) سورة المدثر: الآية ٤٥.

١٤ ـ ينبغي الحذر من كل الأساليب التي تؤدي إلى نشر الفاحشة في المجتمع لأنها خطوات الشيطان.

١٥ ـ امنح العفو لأنك محتاج إلى من يعفو عنك. ولا تنسى أنك مثلهم بشر تخطىء وتصيب.

١٦ ـ أهمية الإصلاح بين الناس فلا بد من مسح الجراح من القلوب وترميم العلاقات كي يبقى المجتمع كالبنيان المرصوص.

١٧ ـ التربية القرآنية تعطي الفرصة للإنسان أن يخطو ويتعثر.. وينطلق في تجربته واجتهاده.. وعندها يتعلم.

١٨ ـ هذه التشريعات والتوجيهات لخير الدنيا والآخرة.. فهي من فضل الله ورحمته (ولهذا تكرر التذكير بذلك).

١٩ ـ الأسرة الصالحة يلتقي فيها الزوجان على تقوى الله ويتماثل قلباهما في الطهارة.. وهذه هي التي تثمر..

٢٠ ـ عظمة الضمانات الاجتماعية التي حققها الإسلام للفرد الذي يعيش في ظله. (ضمانة الأعراض).

● ● ●

٣ ــ احتياطات أمن (قسم أول)

ونعني بها: مجموعة من الأحكام والآداب نزلت لتحمي المجتمع من التعرض للخطر.

فقد بدأت السورة بموضوع الزنىٰ ثم ذكرت قضية الاتهام به وهولت من شأن القذف.. وجاءت قصة الإفك مثالاً حياً على فظاعة هذا الجرم. ثم تتحدث الآيات الآن عن الموانع من الوقوع به. فكأن الآيات توحي لنا:

١ ــ أن سبب شيوع قصة الإفك هو ثغرات موجودة في العادات الاجتماعية فتأتي الأحكام لسدها.

٢ ــ أن الشريعة عندما تحرم عملاً وتفرض عقوبة عليه.. فإنها تحرم وتسد الطرق المؤدية إليه أيضاً.

وهنا نجد التربية القرآنية تنتقل بنا من الشدة في الحدود إلى الآداب وتعليم الذوق وتهذيب الشعور.. ولا ننسى المستوى الذي كان فيه العرب عند ذلك من الجفوة والبداوة.

١ ــ أدب الدخول إلى المنازل:

سنرى أن هذه الآداب قد يتحلى بها أناس لم يدرسوها كأحكام.. لأنها انغرست بالتربية في لا شعورهم.. وهو أمر إيجابي جيد.. لكن ارتقاء الإنسان لا ينمو إلاَّ بالعناية بشقَّيه: الشعور واللاشعور.. فنرفعه

علمياً ـ بتعلم الأحكام ـ ونرفعه سلوكياً ـ بالتربية والتعويد حتى تترسخ هذه الآداب في أعماقه وتصبح عادات ـ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ. . . ﴾:

فالأدب الأول: الاستئناس وهو أعم من الاستئذان. فهو يشمل الاستئذان والتلطف في معرفة ما إذا كان أصحاب البيت مستعدين لاستقبالك ويأنسون بك. فتأملوا كيف يتدخل القرآن في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلم.. وكيف يعلم أتباعه الأدب ورهافة الحسّ..!!

والأدب الثاني: ﴿. . . وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ. . . ﴾:

ويذكر بالحكمة بعد الأمر ﴿. . . ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾:

وفهم الحكمة يساعد على الالتزام بأمر الله.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون على البيوت ويدخلونها دون إذن لأن أكثر البيوت لم يكن لها أبواب مقفلة.. بل توضع على مداخلها الستور.. وأحياناً بدون ستر. (مثل بيوت بعض القرى حتى الآن). ولا يخفى ما في ذلك من أذى لأهل الدار وانكشاف للعورات وتعريض الداخل وأهل البيت للفتن. فيأتي حكم الاستئذان ليشعرنا بأن الله قد جعل البيوت حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلاّ بعلم أهله وإذنهم كي يتحقق فيها السكن والأمن على العورات والحرمات.

﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ. . . ﴾:

ولا عبرة بإذن الطفل أو الخادم إن لم يكن صاحب البيت موجوداً. إلاّ أن يرسل لكم إذناً ريثما يحضر. أو يكون لكم إذن منه في السابق بالدخول والجلوس في غيابه.

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ . . . ﴾ :

والسنة أن يستأذن ثلاث مرات فإن لم يرد عليه ينصرف. وإن رد أصحاب الدار فقالوا ارجع لا إذن لك. . فعليه أن ينصرف دون أن يشعر بضيق أو حرج. ولا يعني ذلك أن يتعود المسلم على رد زواره رداً قبيحاً. . فإن الزائر له حق ولا يجوز رده إلاَّ لضرورة والأولى الإذن له والترحيب به. ولكن قد تعرض لصاحب البيت أحوال يضطر فيها للاعتذار فعلى الزائر أن يرجع دون ضيق حتى ولو لم يعرف السبب.

ويعقب على ذلك ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ ﴾ أي أطهر وأفضل وللناس أسرارهم وأعذارهم.

﴿ . . . وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ :

يعلم أسراركم وما يدور في نفوسكم. . وهو يأمر عن علم بما يصلح لكم.

﴿ . . . لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ . . . ﴾ :

تحدد الآية هنا أن بعض الأماكن يسقط في دخولها الشرط الأول: الاستئناس. ويبقى الشرط الثاني وهو السلام. وهي الأماكن العامة: كالفنادق والمطاعم والمدارس والمحلات التجارية.

﴿ . . . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ :

وإن طاعة الأمر الإلهي لا بد أن ترفق بالنية الطيبة الخالصة حتى يقبل المؤمن عند الله. . والله يؤدب ظاهر المؤمن ويطهر باطنه. . وكثيرون يلبسون ثوب الأدب في التعامل مع الناس وقلوبهم لا تعرف الطهارة والأدب.

طريقة الاستئذان من السنة:

يتميز الإسلام بأنه يصبغ المجتمع المسلم بمجموعة معينة من الآداب والعادات تعطيه طابعه الخاص بين الأمم. وهذه الآداب تمثل جانباً هاماً في ثقافة الأمة. وتمنحها الروح الموحدة ولا بد للمسلم أن يحافظ على ثقافته المتميزة كي لا يفقد روحه وشخصيته.. ولا يعني ذلك رفض الخير عند الآخرين. ولكن كما يقول المفكر مالك بن بني ــ رحمه الله ــ لا بد من مصفاة على عتبة المجتمع لتغربل ما يقتبس من ثقافات الأمم الأخرى.. وإلاَّ ضاعت شخصية الأمة.

وسنتناول هنا ما ورد في السنة حول آداب الاستئذان.

١ ــ عن أنس أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد وعليك السلام ورحمة الله ولم يُسمِعْ النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً. ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمِعْه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمتَ تسليمة إلاَّ وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة[١].

وقد وردت أحاديث تدل على أن المستأذن يستأذن ثلاث مرات. فإن لم يؤذن له انصرف. مع مراعاة الانتظار بين المرات الثلاث حتى يتهيأ صاحب الدار ويفرغ مما يشغله.

٢ ــ «إنما الاستئذان من النظر»[٢]. فعلى المستأذن أن لا يستقبل الباب بوجهه ونظره عند الاستئذان وأن لا يتطلع إلى النوافذ. يقول

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه أبو داود.

الرسول ﷺ: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه، ما كان عليك من حرج»[1].

وبعض البيوت تكشف من غير أبوابها خاصة من قبل الجيران كأن ينظر إليها من السطح أو الشُرفات أو الكوى.. فكل ذلك منهي عنه.

٣ ــ وقد كان رسول الله ﷺ يعلمهم كيفية الاستئذان. أتى رجل من بني عامر يستأذن على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل. فأذن له النبي ﷺ فدخل[2]. وقد أصبح الآن للبيوت أجراس أو أساليب أخرى للقرع.. فلا بأس في ذلك.. يقرع الباب فإذا فتح الباب أوردوا عليه.. قال: السلام عليكم.. أأدخل.

٤ ــ فإذا سئل المستأذن: من؟ فعليه أن يقول اسمه. قال جابر: أتيت النبي ﷺ.. فدققت الباب فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا. قال: «أنا.. أنا.. !!» كأنه كرهه[3].

بل الأفضل أن يصرح المستأذن باسمه بعد السلام. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أتى النبي ﷺ قال: السلام عليك يا رسول الله، أيدخل عمر[4].

٥ ــ وليس الاستئذان قاصراً على الدخول على الآخرين، بل إنه جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً

(١) ورد في الصحيحين.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) أخرجه الجماعة.
(٤) رواه أبو داود.

ـ أي يفاجئهم بقدومه ـ وفي رواية «يتخونهم». . أي أنه يتصرف وكأنه لا يثق بأهله فيفاجئهم ليطلع على أحوالهم. . وفي ذلك إيذاء لشعورهم وإفساد للعلاقة الأسرية المبنية على الثقة والاحترام. وقد كان عبد الله بن مسعود إذا انتهى إلى باب بيته وأراد الدخول على زوجته تنحنح (كراهة أن يهجم منا على ما لا نحب) كما تقول زوجته. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أأستأذن على أمي يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيري! قال: «أتحب أن تراها عريانة»؟ قال: لا. قال: «فاستأذن عليها»[1]. وفي ذلك إعطاء فرصة لأهل البيت كي يستعدوا لاستقبال الأزواج. فقد نهى رسول الله ﷺ أصحابه ـ وقد عادوا من سفر فأرادوا التعجيل بدخول المدينة ـ وأمرهم بالتمهل حتى «تمتشط الشعثة».

الحكمة من الاستئذان:

١ ـ احترام حرية المسلم في بيته. وكثير من الآداب الإسلامية تعبر عن هذا المقصد الكريم الذي من شأنه أن يحيط المسلم بهالة من الكرامة ويضمن له حقوقه الشخصية. . فقد ورد مثلاً النهي عن النظر في رسائل الآخرين بدون إذن: «من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار»[2].

٢ ـ منع العورات من أن تنكشف فتسبب فتنة تؤثر نتائجها على المجتمع كله.

٣ ـ والعورات ليست جسمية فقط. . وإنما هناك عورات الطعام. . والأثاث المبعثر. . والانشغال بأعمال البيت. . أو الانشغال بمواعيد خاصة. . وهناك عورات المشاعر. . والمشاكل العائلية. .

---

(١) ذكره ابن جرير.

(٢) رواه أبو داود وينبغي مراعاة هذا الأدب بين الزوجين فلا ينظر أحدهما في أوراق الآخر إلاَّ بإذنه.

ولا بد من الانتباه بأن الزائر عليه أن يجلس حيث يؤذن له ولا يتنقل داخل البيت إلاّ بإذن.

هذه الأوامر تحتاج من المسلم إلى حكمة وذوق وإعمال فكر.. حتى لا يشوهها عند التطبيق فتأتي النتائج معاكسة لمقاصد الشريعة. إن الحكمة هي القدرة على وضع الأمور في مواضعها ولا يصل إليها إلاّ من فهم مقاصد الشريعة فعرف كيف يضع الأوامر الشرعية في مكانها ولم يتشنج في التطبيق.. وهي الصفة التي وصف الله بها عباده حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾[1] . وإنما يتفهمون أبعاد الحكم ومواضع تطبيقه.

مثلاً: إن تطبيق حكم الاستئذان في حالة تعرض أحد البيوت لخطر ما: كالحريق أو التهدم.. أو مهاجمة عدو.. يعرض أهل الدار للهلاك. وفي الحياة أمور كثيرة لو وضعت في غير مكانها لأحدثت فساداً كبيراً. وكثيراً ما كنت أستشهد بالمثل الشائع: (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) ولكن مما لا شك فيه أن السكوت في غير محله خطأ شنيع. (الساكت عن الحق شيطان أخرس) والرسول ﷺ أوصى أبا ذر بأن يمسك لسانه ووصف هذه الوصية بأنها جامعة شاملة.. ولكن من الواضح أن هذه الوصية تحتاج إلى فقه وحكمة.

ولأهل الشام طُرَف ونوارد يصورون بها فقدان الحكمة في الأمور.. من مثل قصة الولد الذي كان أبوه يزجره باستمرار كي يتكلم باللغة الفصحى.. فحدث مرة أن كان الأب يوقد ناراً وينفخ فيها كي تتأجج فطارت منها شرارة إلى عمامته.. فوقف الولد يستجمع مقدرته اللغوية إلى أن قال:

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٣.

(يا أبتاه.. قد طارت شرارة إلى زر طربوشك فأحرقته...).

ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين يفتقر إلى الحكمة في تطبيق الأوامر الإلهية.. والأمثلة تفقأ العين..

٢ ــ غض البصر وحفظ الفرج وحفظ الزينة:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ...﴾:

إن الآيات تبني بهذه الآداب والوصايا عالماً طاهراً نظيفاً لا مجال فيه لنمو الإثارة والفتنة. وهي تتوجه إلى الجنسين بنفس الأوامر وتخص المرأة بتوجيه إضافي: حفظ الزينة.. لأنها هي موضع الجمال.. خصتها العناية الإلهية بمزيد من الزينة التي قد تفتن إن لم تُستر.

ــ وغض البصر: هو خفضه والإنقاص منه.. فلا ينظر بملء عينيه ولا يحدق. وهو كف النظر عما لا يحل بخفضه أو تحويله إلى جهة أخرى. وقد سأل الصحابة عن وقوع النظر فجأة على ما لا يحل: عن جرير قال: (سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري)(١). وقال ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»(٢).

وليس الأمر قاصراً على نظر كل جنس إلى الجنس الآخر. بل ورد في صحيح مسلم «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة». كما نهى أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد وأن يباشر الرجلُ الرجلَ في شعار واحد(٣).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه أبو داود.

ـ و ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ من الوقوع في الفاحشة ومن اللمس والنظر. كما أشرت سابقاً.

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ وهو بيان للحكمة من الحكم يجعل المسلم أكثر التزاماً بالحكم ويدخله إلى ضميره. و (أزكى) من أفعال التفضيل.. ومعنى ذلك أنه قد تحدث طهارة نسبية بدون هذه الأوامر.. لكن تطبيق هذه الأوامر يحقق زكاة وطهارة أكثر.. ولا ينبئك مثل خبير.. لهذا يأتي التعقيب:

﴿... إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

فهو الخبير بالنفس الإنسانية وهو أعلم بمساربها ومواضع الخلل فيها.. وهو وحده الخبير بدوافع السلوك من لمس أو نظر عابر أو قول عارض.. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.. وإنه لمستوى عظيم أن تستطيع التربية القرآنية رفع مستوى المسلم إلى درجة يتحرج فيها من النظرة الخاطفة السريعة خوفاً من الله الذي يعلم خائنة الأعين..

ويتكرر الأمران مع المؤمنات:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾:

ويضيف أمراً ثالثاً:

﴿... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾:

ـ **حفظ الزينة**: والزينة في الأصل مباحة. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ؟!﴾[1].

والزينة بالنسبة للمرأة تشمل: الملابس ـ والحلي ـ ومساحيق للتجميل والعطور..

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

وهـذا المـوضـوع يتعلـق بجانـب الجمـال فـي الثقـافـة الإسـلاميـة. . والجمـال ركيـزة كبـرى فـي الثقـافـة الإسـلاميـة «إن الله جميـل ويحـب الجمـال»[1] ، وليس الجمـال قـاصـراً فيهـا علـى الأشكـال. . بـل إنـه يشمـل حسـن التصـرف وكمـال الأداء، وهـو الإحسـان الـذي قـال عنـه ﷺ: «إن الله كتب الإحسـان علـى كـل شـيء. فـإذا قتلتم فـأحسنـوا القتلـة. وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[2] . لكن الأولوية في الثقـافـة الإسـلاميـة ليسـت للجمـال ـ كمـا يقـول مـالـك بـن نبـي صـاحـب الدراسات الحضارية ـ وإنما هي للمبدأ الأخلاقي. . فالأخلاق يجب أن تهيمن على الجمال وإلاَّ أسرع التفسخ إلى الحضارة وانجرفت إلى طريق الشهوات. .

والموضوع عميق يستحق أن تفرد له أبحاث مستقلة ولا تكفي فيه هذه السطـور. . ولا زلـت أذكـر مـا كـان يكـرره ديـورانـت فـي بحثـه التـاريخـي الحضاري. . من أن الدين (أو الأخلاق) يتعارض مع الجمال. وكنت أحس بخطأ هذا التصور وسطحيته. . وتساءلت كثيراً ما هو الجمال؟ أليس هو الذي يسر العين ويبعث البهجة في النفس. .؟ وهذا أمر يختلف فيه الناس بحسـب الأولـويـات التـي تمتلـك قلـوبهـم. . فـالـذي ملكـت قلبـه الأخـلاق لا يحـس بـالجمـال فـي العـري والخـلاعـة ـ مثـلاً ـ بـل يتملكـه الشعـور بـالاشمئزاز. . ولهـذا تختلـف الشعـوب في تقييـم الآداب والفنـون. . وفـي درجة الاستمتاع بها. . فما يراه الغربـي جميلاً قد يراه المسلم في منتهى القبـح. . وقـد ذكـر مـالـك بـن بنـي نمـوذجـاً لـذلـك حيـن قـارن بيـن إحسـاس الرجـل الغربـي والآخـر المسلـم عنـدمـا يشـاهـدان مسـرحيـة عطيـل ـ مثـلاً ـ

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

فالغربي يخرج منتشياً.. والمسلم يخرج مشمئزاً من هذا القتل والانتحار..

أعود فأقول إن الموضوع يستحق أن تفرد له أبحاث أخرى ولا أدعي القدرة على إيفائه حقه.

أما موضوع الزينة فهي في الإسلام مباحة بل تصبح أحياناً مطلوبة ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[1]. ولكن الإسلام وضع لها حدوداً كي تبقى نافعة تحقق السعادة ولا تؤدي للضرر ولهذا حرَّم منها:

١ ـ إبداءها للرجال من غير المحارم ـ كما سيأتي تفصيله ـ.

٢ ـ أن تحدث تغييراً في خلق الله. وقد عدد الرسول ﷺ أنواعاً من ذلك.. وللمتأمل أن يلاحظ أن الله خلق الجسم الإنساني وكل شيء فيه له دور ووظيفة.. والتلاعب بشيء منه بغرض التجميل قد يؤدي أحياناً إلى تعطيل الوظيفة أو تشويهها أو إحداث ألم لا مبرر له.. (كالوشم والنمص..).

أما عمليات تقويم الأعضاء التي لا تؤدي وظيفتها التي خلقت لها بالشكل الكافي.. فلا يعتبر تغييراً بل هو تصحيح وتقويم.. (مثل تقويم الأسنان). كذلك فإن الشارع قد استثنى من التغير خصال الفطرة التي أمر بها (قص الأظافر ونتف الإبط و...) لأنها تحقق الطهارة والنظافة.

٣ ـ أن تتشبه بها بالرجال. لأن هذا يؤثر في شخصية المرأة ويفقدها جمال الأنوثة.

٤ ـ أن تتشبه بها بالكافرات. فما ينبغي للمؤمنة أن تكون خاضعة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١.

منقادة للكافرة.. ومن المعروف أن للتقليد أبعاده النفسية فهو يدل على الإعجاب والانبهار.. ولهذا: من تشبه بقوم حشر معهم.

٥ ــ أن تصل إلى حد الإسراف حتى تصبح وكأنها هي الغاية من الحياة يصرف فيها أكثر الجهد والوقت والمال.. وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. وقد نهينا عن الإسراف في كل شيء ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾. وإن وراء كل إسراف حرمان وتضييع لحقوق الآخرين. أين منا قول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»..؟! والمرأة منا لم تعد تكتفي بخاتم واحد في اليد.. بل تكاد تضع في كل إصبع خاتم... وكأنها لا تسمع بما يجري في جنبات العالم الإسلامي من مآسي..!! إن قلمي يعجز عن وصف هذا الجرم الذي ترتكبه المؤمنة بحق إخوانها..

نعود إلى الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

والمتأمل في الآية يدرك أن المعنى: ما ظهر من الزينة دون قصد إبدائه كأن ينكشف الثوب قليلاً بفعل الرياح أو أثناء الصعود إلى المراكب.. ومن الملاحظ أن من تحرص على الجلباب والخمار عند خروجها لا ينكشف منها دون قصد إلاّ جزء بسيط من القدم أو الذراع. بينما التي تظن أنها تستر ركبتيها يظهر منها أثناء الحركة والجلوس والصعود والنزول ما فوق الركبة بكثير.

كذلك تشمل الآية ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الأناقة في الجلباب والخمار. وليست الأناقة ــ أو الجمال ــ محرمة في ذاتها.. ولكن تأتي ــ كما قدمت ــ بالدرجة الثانية بعد استيفاء الشروط الشرعية. فاللون الجميل لا مانع منه بشرط أن لا يكون مثيراً أو فاقعاً لافتاً للنظر. وطريقة التفصيل كذلك.

وقد لفت نظري ما ورد في سورة الأعراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾(١) . فالآية تنص على ثلاثة أنواع من اللباس:

١ ـ لباس يواري السوءة. وهو الحد الأدنى من اللباس.

٢ ـ لباس الريش. وهو الحد الأعلى في لباس الزينة.

٣ ـ لباس التقوى. أي اللباس الذي يتحكم فيه المبدأ الأخلاقي. ويسميه لباس التقوى لأنه يقي من العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة. ويمنح لابسه صفة التقوى. وهذا يذكرني بحديث مالك بن بني في كتابه شروط النهضة عن مشكلة الزي وأثر اللباس في الإنسان.. فليس الأمر كما يظن بعضهم أمراً شكلياً لا علاقة له بجوهر الإنسان.. بل إن لباس الإنسان يدل على بعض جوانب تفكيره.. كما أن اللباس يلقي تأثيراته على تفكير الإنسان ومشاعره. ولهذا قيل (القميص يصنع القسيس).. ولهذا يشعر الإنسان بالنشاط حين يلبس لباساً رياضياً. فمن الطبيعي إذن أن يكون للدين تأثيرات وتوجيهات في مسألة اللباس. فاللباس السابغ المتسم بالحشمة يلقي بهذه الإيحاءات في نفس من يلبسه.. وفي نفس الناظر إليه أيضاً.. ولهذا عقب على الأمر بالجلباب بقوله: «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» فالناظر إلى من تلبس هذا الزي يحس بالعفة.. وقد قرأت مؤخراً كلاماً لإحدى المؤمنات عن حجابها الذي تمسكت به في بلاد الغرب تقول فيه أنها تعبر بلباسها هذا عن رفضها (لتجنيس المرأة).. أي النظر إليها من خلال الغريزة الجنسية فقط. فهي بلباسها تفرض على الناظر إليها أن يتعامل معها كإنسانة محترمة لها تفكير وإحساس نبيل.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

إن ميزة الثقافة الإسلامية على باقي الثقافات أنها تعطي الأولوية للأخلاق: أي للأوامر الشرعية ثم الجمال. بينما الثقافة الغربية تعطي الأولوية للجمال وهذا ما يؤدي إلى التحلل الأخلاقي. فإذا ظهرت الزينة بدون ضوابط ووقع عليها البصر حدثت الفتن وسقط حفظ الفرج.. ولهذا جمعت الآية بين الأوامر الثلاثة: حفظ الفرج وغض البصر وحفظ الزينة. ولكن ترتيب هذه الجوانب الثلاثة بحسب النظر السنني ـ أي الأسباب والنتائج ـ يجعل حفظ الفرج في آخرها.. بينما بدأت به الآية.. فلماذا يا ترى..؟

إن البدء بالنتيجة قبل ذكر أسبابها له إيحاءات كثيرة منها: الإيحاء بسرعة حدوث هذا الأمر وكأنه يسابق أسبابه.. وفي القرآن ما يشبه ذلك حين يقول: «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً»[1]. فحدوث الانفعال النفسي (الرعب) سرعان ما ينتج سلوكاً (وهو الفرار).

وتزيد الآيات في تفصيل موضوع حفظ الزينة بالأمر بضرب الخمار.

﴿... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ...﴾:

والخمار هو غطاء الرأس. من خمَّر الإناء: غطاه. وسميت الخمر خمراً لأنها تغطي العقل.

والجيب: هو فتحة الصدر والعنق. والآية تفيد فرض ضرب الخمار حتى يستر الرأس والعنق والصدر.. خلافاً لما كانت تفعل النساء في الجاهلية من إلقاء الخمار على جزء من الرأس وإسداله وراء الظهر حتى تنكشف صدورهن وأعناقهن وغدائرهن... إلخ.

(١) سورة الكهف: الآية ١٨.

وللخمار شروط شرعية:

١ ــ أن يلف بإحكام حول الوجه ــ وهو معنى ضرب الخمار ــ أي تثبيته بإحكام ليستر الرأس والجيب.

٢ ــ أن لا يشف عما تحته.

٣ ــ أن لا يكون زينة في نفسه.

وهذا يشمل اللون ونوع الزخرفة والنقوش التي تكون عليه.

ولا يمكن إعطاء حكم في ألوان معينة أنها تجوز أو لا تجوز.. وإنما المرجع في ذلك التقوى والذوق الإسلامي. فقد يكون الأزرق مغرياً على البيضاء مثلاً.. وشرعياً لغيرها.. كما أن للعرف العام لكل بيئة دور في تحديد المقبول والمستهجن.

وبعض الباحثين يستنتج من الآية وجوب ستر الوجه بأن يمر الخمار من فوق الوجه ليستر الجيب.. ولكن وردت أحاديث كثيرة تدل على جواز كشف الوجه ــ كحديث جابر في وعظ رسول الله ﷺ النساء في صلاة العيد وحديث الفضل عندما كان رديف رسول الله ﷺ عند الإفاضة ــ ولا أحب الخوض في هذه الخلافات وأتمنى أن تشيع روح التسامح والاحترام في وجهات النظر بين المسلمين ولكن أشرت إلى ذلك من باب بيان الحق.. وحتىٰ لا ننسى القاعدة الإسلامية الكبرى: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا..

ثم تعدد الآية من هم الذين يجوز إبداء زينة المرأة أمامهم:

﴿... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ...﴾:

ومن الواضح أن القصد بالآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة ومواضع الزينة أيضاً ـ أي الذراعين حيث توضع الأساور والعنق والصدر حيث توضع القلادة والساق حيث يلبس الخلخال ـ ولا شك بأن هناك حدوداً لهذا الإبداء أمام المحارم وإن اختلف الفقهاء في تحديده.. ولا أدخل في تفاصيل ذلك بل أفضل أن يترك الأمر لضمير المؤمنة وحيائها..

والآية تعدد من يجوز إبداء الزينة أمامهم: الزوج وسبعة من الرجال المحارم على المرأة وتضيف: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: وفي ذلك تخصيص. ولو كان القصد الظهور أمام كل النساء لقال: (أو النساء). فما القصد إذن؟ اختلف العلماء فبعضهم قال: القصد هو المسلمات فقط.

وهو رأي ابن عباس. وبعضهم قال: النساء المختصات بالصحبة والمعرفة سواء كن مسلمات أو كتابيات.. المهم أن لا يكنَّ فاسقات. وهو رأي المودودي. وقد تكون المرأة مسلمة ولكنها فاسقة فاسدة الخلق تصف النساء للرجال ولا تلتزم بأمر النبي ﷺ حيث يقول: «لا تباشرالمرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[1].

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾. من المفسرين من قال المقصود في الآية الإماء فقط وهو رأي ابن مسعود والحسن البصري وأبي حنيفة. ومنهم من قال: تعم العبيد والإماء وهو رأي الشافعي. وفي ذلك رفع للحرج فقد كان العبيد يخالطون أهل البيت ويكونون في حوائجهم.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وفي الآية شرطان:

١ ـ أن يكون تابعاً: أي خادماً أو أجيراً.

---

(١) ورد في الصحيحين.

٢ ـ أن لا يكون له إرب في النساء لكبر في السن أو مرض.

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾. الذين لا يثير فيهم جسم المرأة شعوراً بالفتنة. ومن المعروف أن المشاعر الجنسية تبدأ عند الطفل قبل البلوغ بمدة.. فهل يمكن تحديد العمر..؟ إن هذا يختلف من بيئة إلى أخرى ويتدخل في ذلك المناخ والأسلوب الذي يعيش عليه المجتمع من أخلاق وآداب وقوانين. وهناك فروق فردية في البيئة الواحدة.. والأفضل أن تتحفظ المرأة في مظهرها أمام طفل قد بلغ سن العاشرة.

وبذلك بلغ عدد الذين لا تحتجب المرأة منهم اثنا عشر نوعاً.. وفي ذلك تيسير وتخفيف وإعطاء فرصة للاحتكاك الطاهر المباشر بين الجنسين في نطاق عائلي كريم.. مما يثري الحياة وينضج الخبرات ويجعل كل جنس قادراً أكثر على فهم الجنس الآخر.. وهذا يعطي فرصاً أكبر للنجاح في الزواج.

﴿... وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ...﴾:

وكانت النساء في الماضي تلبس الخلاخيل التي تصدر رنيناً أو (خشخشة) أثناء السير والضرب بالأقدام.. فهل انتهى الأمر بانتهاء عصر الخلخال؟

إن النهي في الآية عام في كل فعل من أفعال المرأة يمكن أن يثير حواس الرجال ومشاعرهم.. فإذا جاء الأمر بالحجاب كي لا تفتن العين ونهى عن التعطر للمرأة عند الخروج كي لا يفتن الأنف.. فإنه ينهى عن كل ما من شأنه أن يثير الفتنة عن طريق السمع. فقد نهى المرأة عن الخضوع في القول ـ وهو تجميل الصوت والضحك الناعم ـ في سورة

الأحزاب. وهنا علينا أن ننتبه إلى أن كل ما من شأنه أن يثير الحواس والمشاعر يعتبر من التبرج وإبداء الزينة.. (الحذاء ذي الكعب العالي وما يصدره من صوت أثناء السير وما يضيف من طول ورشاقة للمرأة ـ خشخشة الأساور والحلي...).

ومن المعروف أن الخيال أحياناً يكون أقوى في الإثارة من الحقيقة.

ثم يتوجه بالنصح لجميع المؤمنين والمؤمنات أن يرجعوا إلى الله ويتحرروا من كل ما سلف منهم من أخطاء ولا يعودوا لمثله كي يصلوا إلى الفلاح في الدنيا والآخرة:

﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾:

فلقد وضع الله لكم هذه الضوابط ـ مثل كابح السيارة ـ كي لا تتدهور مركبة المجتمع.. وحتى لا تتردى هذه النفس في مهاوي الضلال والضياع.. انتبهوا يا أيها المؤمنون فإن الله يريد لكم الفلاح والنجاح ويعينكم عليه..

ولا تتحقق التوبة الصحيحة إلاَّ بأن يعترف الإنسان بخطئه ويندم عليه ويستغفر ربه وينوي أن لا يعود إلى خطئه.. بل يشغل نفسه بعمل الصالحات.. فالحسنات يذهبن السيئات.

احتياطات أمن من السنة:

١ ـ نهى النبي ﷺ أن يخلو أحد من الرجال بامرأة ليست من محارمه.

٢ ـ صافح رسول الله ﷺ الرجال عند البيعة ولم يصافح النساء. فالأولى ترك المصافحة بين الرجال والنساء إلاَّ مع المحارم.

٣ ـ وردت وصايا من الرسول ﷺ تخفف من الاحتكاك المباشر بين

الجنسين. من مثل تفضيل الصفوف الأولى للرجال في الصلاة.. بينما تفضل الصفوف الأخيرة في الصلاة للنساء. وكان ﷺ يتأخر في الانصراف من المسجد بعد الصلاة ليعطي فرصة للنساء كي ينقلبن إلى بيوتهن. وكان يخصص للنساء وقتاً يعلمهن فيه.. ويجعل لهن خطبة خاصة في العيدين في زمن لم تكن توجد فيه مكبرات الصوت. وقد شكلت هذه الوصايا لدى المسلم ـ والمسلمة ـ ذوقاً رفيعاً وأدباً لطيفاً يمنع كلاً منهما من مزاحمة الجنس الآخر في الطرقات والأسواق والحافلات..

حين ندرس هذه الأحكام علينا أن نتذكر:

١ ـ أن الإسلام دين الحياة اليومية يدخل في كل صغيرة وكبيرة ليطبع المسلم بطابع فريد متميز عن سائر الناس حتى في طريقة النظر والمشي والكلام. ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[1].

٢ ـ أننا آمنا بالله العليم الحكيم الذي شرع هذه الأحكام وافتتح السورة بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾. وقد تغيب الحكمة من الأحكام عن أذهاننا تارة.. وقد يسيطر الهوى على النفس فتنساق وراء الرغبات غافلة عن أمر الله.. و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ㉔﴾[2].

٣ ـ إن إرادة الله فيناهي أن يبين لنا ما فيه صلاحنا وأن يتوب علينا ويخفف عنا مشقة الضلال. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ㉖﴾... ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[1] . إن شياطين الانس تريد أن تلقي بنا في متاهات الضلال وتعاسة الانحراف. . فمن ذا الذي يفضل الظلمات على النور. .؟!

٤ ـ ولنذكر سرعة امتثال الصحابيات لأمر الله. . تقول السيدة عائشة: (يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها)[2] .

كما ذكرت مثل ذلك عن نساء الأنصار فقالت: (ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل. . .). ولا عجب فـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3] .

٣ ـ التزويج والاستعفاف:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ. . .﴾:

الأيامىٰ: جمع أيم. وهو من لا زوج له من الرجال والنساء. سواء سبق له الزواج أم لا.

وفي الآية أمر لجماعة المسلمين بتسهيل الزواج والمساعدة عليه لمن يرغب فيه من الأحرار والعبيد. وهو أمر السير فيه على مثل حد السيف. فليس من السهل أن تتحمل مسؤولية تزويج رجل أو امرأة. . فقد يدعو أحدهما عليك عند أول شجار. . وقد درج الناس على قول: (الله يجازي الذي كان سبباً. .). . وإنك لا تدري هل تكون سبباً في سعادة زوجين وظهور ذرية طيبة تعبد الله. . أم العكس. . ولكن المؤمن يجتهد بقدر

(١) سورة النساء: الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) رواه أبو داود. وذكره ابن كثير عن البخاري.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

إمكانه ثم يتوكل على الله فإن أخطأ فله أجر لأنه سيعتبر ويتعلم هو وإخوانه من أخطائه.

وقد جاءت وصايا كثيرة تحض المؤمنين على تسهيل الزواج والتخفيف من أعبائه لأن الزواج إحصان للمجتمع وحماية له من سهام الفساد ومهاوي التفسخ. مثل قوله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلاَّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)] . وقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»[(٢)] .

ويشترط في الأرقاء أن يكونوا صالحين: «والصالحين من عبادكم وإمائكم»، أي صالحين في سلوكهم وتعاملهم مع الناس.. والصالحين للحياة الزوجية، لأن الأحرار تقع مسؤوليتهم على أنفسهم أما الرقيق فمسؤول عنه سيده.. والله يريد للزواج أن يبنىٰ على أسس صالحة متينة كي تتكون منه خلايا صالحة فعالة تساهم في دفع الفساد عن المجتمع.

﴿... إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾:

فلا ينبغي أن يكون الفقر عائقاً أمام الزواج، والقرآن ينظر إلى العالم الاقتصادي بشكل مختلف عن نظر الناس فلا يعطيه الأولوية في الاهتمام وإنما الأولوية للدين والتقوى. انظر مثلاً كيف يأمر بمنع دخول المشركين إلى المسجد الحرام مع أنهم يقصدون المواسم ويشكلون دعماً مالياً لأهل الحرم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[(٣)] . ينظر الإسلام إلى الجانب

(١) رواه الترمذي.
(٢) أخرجا في الصحيحين.
(٣) سورة التوبة: الآية ٢٨.

الاقتصادي على أنه نتيجة للنهضة التي تحدث من تفاعل الإنسان مع مثل أعلى يحركه لاستخدام التراب واستغلال الوقت في بناء الحضارة. وإن خط الصعود للحضارة يتصف بأن الأولوية فيه تعطىٰ للمثل الأعلى (دين أو مبدأ أخلاقي).

وكثيراً ما يكون الزواج سبباً في تغيير الفقر إذ يشعر الرجل بالمسؤولية فيهتم بالسعي وراء الرزق وتساعده حالته النفسية المستقرة على ذلك.

وأما ما يحدث في عالمنا الآن من اشتراط أهل الفتاة في الخاطب أن يتوفر فيه مستوى مادي معين.. فقد أخّر سن الزواج بالنسبة للطرفين وعرض المجتمع لمفاسد كثيرة. وعلى الآباء أن يتذكروا أنهم بتمسكهم بهذه العادات السيئة ـ من مهر ضخم وحلي وفرش غالي للبيت ـ إنما يعرضون المجتمع للفتنة والفساد العريض.

ومع ذلك فإن الإسلام دين واقعي لا يهمل الجانب المالي كلياً بل يشترط توفر حد أدنى من القدرة المادية على الزواج «من استطاع منكم الباءة فليتزوج». أي لديه القدرة للإنفاق على أسرة ولو سد حاجاتها الضرورية. ويَعِدُ الفقير بالمساعدة:

﴿... إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾:

فمن قصد إحصان نفسه وطاعة ربه فإن الله يعينه ويغنيه.. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ لا يضيق على من يريد العفة.. والله يعلم خبايا النفوس ولن يتخلى عن عباده الصالحين.

نعود لنوجز أهم ما في الآية من توجيهات:

١ ـ ينبغي أن يتوفر الصلاح في من يريد الزواج.

٢ ـ لا يجوز أن تكون الأمور المادية مانعاً من الزواج.

٣ ـ واجب المجتمع تسهيل الزواج من جميع النواحي.

التوجيه للاستعفاف:

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ. . . ﴾:

في الآية السابقة وجه الذي يُزَوِّج أن لا يهتم بالمال. لكن يوجه الذي يريد الزواج في هذه الآية إلى أن يهتم بتوفير المال اللازم. كما جاء في الحديث: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١]. إن التربية القرآنية توجه كل طرف إلى أداء واجبه.. لأن القيام بالواجبات هو الطريق للحصول على الحقوق بينما الناس في هذا الأمر مصابون بالنظر المعكوس فهم يتركون الأسباب ويطالبون بالنتائج وكل فرد منهم يفكر بحقوقه ويطالب بها.. وبهذا تتعقد مشاكلنا ويتعثر سيرنا.. لأننا لا نمشي وفق السنن ولا نأتي البيوت من أبوابها.. ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ؟!﴾[٢]. إن كل الأمم التي تطالب بحقوقها لا تحصل على شيء إن لم تسلك الطريق الصحيح فتؤدي واجباتها. ويذكرني هذا بما قال غاندي عن قومه ـ بما معناه ـ (لن تستحق الهند الاستقلال حتى يأمن الماشي في شوارع بومباي من أن تسقط الأقذار على رأسه من النوافذ). وهل حصل العرب على شيء من حقوقهم التي دأبوا على مطالبة هيئة الأمم المتحدة بها...؟!

وذلك أنني إن فعلت واجبي حصل غيري على حقه.. وحين يقوم الآخر بواجبه أحصل أنا على حقي وخير علاج لما نحن فيه أن ندرب أنفسنا

---

(١) ورد في الصحيحين.

(٢) سورة الملك: الآية ٢٢.

على القيام بالواجب.. في الأسرة.. في المدرسة.. في الحي ومع الجيران.. فحين تقوم الأم بما عليها من حسن التربية والرعاية لأولادها.. فإنها تحصل بعد ذلك على برهم وإحسانهم. وحين نبذل جهداً في تعليم الجيران وتوعيتهم والإحسان إليهم.. نحصل على بيئة طيبة تساعدنا وأولادنا على الخير.. وهكذا.. وكما علمنا رسول الله ﷺ: «أدوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم». وهي القاعدة التي جعلها رسول الله ﷺ برنامج حياته امتثالاً لأمر ربه ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ولا ننسى أن طريق الأنبياء يختلف في هذا المجال عن طريق الزعماء والمصلحين.. ففي الوقت الذي يلوح فيه الزعماء للناس بالحقوق ويعدونهم بتحقيق كذا وكذا من الأماني... فإن الأنبياء يعلمون الناس أداء الواجبات ولو تعرضوا للأذى والمشقة.. ولا يعدونهم إلاَّ بالأجر عند الله في الآخرة.. وهكذا بايع الأنصار رسول الله على الإسلام ونصرته.. وعندما قالوا: ما لنا إن وفينا بذلك؟ لم يقل لهم: لكم الرئاسة.. ولا الأموال ولا شيء من ذلك.. بل قال لهم: لكم الجنة.. فرضوا بذلك وانطلقوا يبذلون ويجتهدون متجردين لله.. «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

فالآية هنا تأمر من كان عاجزاً عن القيام بأعباء الزواج أن يستعفف ويتعهد نفسه بما يعينه على العفة والإحصان.. إلى أن يجعل الله له فرجاً.. وكأن الآية تَعِدُ من يستعفف بفضل الله..

(1) سورة النساء: الآية ٨٤.

٤ ــ معاونة الأرقاء على التحرر:

﴿. . . وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ. . .﴾:

نلمس في هذه التوجيهات دفعاً للناس لاستخراج كل ما في وسعهم لإعانة المجتمع على النهوض ووجود الرقيق في المجتمع يمكن أن يساعد على هبوط الأخلاق فيه لأن الرقيق أقل شعوراً بالكرامة والسمو. . وأقرب للوقوع في الأخطاء[١] . ولهذا يأتي الأمر بمساعدتهم على بلوغ المستوى الجيد الذي يؤهلهم للتحرر. . بالمكاتبة. . وهو نظام فريد من شأنه أن يعيد تشكيل شخصية العبد بحيث تمارس أعباء الحر وتجرب مسؤولية الحرية في فترة انتقالية بين الرق والحرية. . وكأنها فترة تدريب وتأهيل. . تتم بإشراف السيد المؤمن أو المجتمع المؤمن. . وقد يتدخل الحاكم المؤمن لترشيدها.

ومعنى «يبتغون الكتاب»: أن يطالب العبد أو الأمة سيده بالحرية على أن يدفع له مالاً يتفق معه عليه. فإذا وافق السيد كتبت بينهما معاهدة بذلك وأصبح من حق العبد أو الأمة أن يعمل ليجمع لسيده المال المتفق عليه.

وقفة سريعة مع الرق:

إن فهم موضوع الرق وموقف الإسلام منه يفيدنا. . ولو أنه في طريقه إلى التصفية النهائية عالمياً. وإن دراسة الأمر كيف بدأ وكيف انتهى فيه فائدة كبرى يتعلم منها الإنسان كيف يتجاوز النظم البالية ليخطو إلى الأفضل. ولهذا أمرنا الله بدراسة بدايات الأمور ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ

---

(١) ولنا أن نلاحظ أن أحد أسباب سقوط الحضارة الإسلامية هو تضخم هذه الطبقة وطغيانها على المجتمع وانغماس الناس وراء الجواري واقتناؤهن. وذلك لأن المسلمين أهملوا التوجيهات القرآنية التي كان من شأنها أن تنهي الرق.

﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾[1] ، ونبهنا إلى ما يجد من نظم جديدة أرقى وأفضل تأتي وفق سنن الله ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[2] . .

فيا أيها المؤمنون انظروا كيف تبدأ الأمور وكيف تنتهي. . وكيف تنشأ نظم جديدة أرقى. . ولا أدعي في هذه الوقفة أنني سأقوم بكل ذلك. فإن ذلك يحتاج إلى دراسة تفصيلية متخصصة ولكنني أذكِّر بأهمية دراسة الموضوع. . وأسجل نقاطاً سريعة عن الخطة التي اتبعها الإسلام في معالجة الرق. وإن من عظمة الإسلام أن يستوعب تطورات كل زمان. . ففي الوقت الذي كان فيه الرق نظاماً عالمياً لا يمكن إنهاؤه بالإلغاء السريع المباشر. . جاء في القرآن تشريعات ونظم تجعل العبيد في أحسن حال ممكن. . إلى جانب الإشارات الواضحة إلى المساواة الإنسانية بين الجميع و ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾. فإذا استطاع الناس أن يتجاوزوا هذا النظام ويتخلوا عنه فقد مشوا على هدي القرآن في الارتقاء وتحرير الإنسان من العبودية للبشر.

فلنعد إلى وضع الرقيق كيف كان عندما جاء الإسلام ولننظر في بعض الإجراءات التي أدخلت. جاء الإسلام والأرقاء على ثلاثة أنواع:

١ ــ أسرى حرب.
٢ ــ أحرار يسرقون ثم يباعون.
٣ ــ الذين كانوا في الرق كابراً عن كابر ولا يعرف متى استرق آباؤهم.

وكان النظام الاقتصادي يعتمد على الرقيق بشكل كبير. . ومحاولة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

إلغائه بشكل مباشر فوري سيحدث هزة اقتصادية واجتماعية.. وربما جر إلى حرب أهلية ونكبات اجتماعية.. لأن الأرقاء غير مؤهلين لأعباء الحرية.. ولا ننسى ما حدث في أمريكا من حروب ومآسي عندما حاولوا إلغاء الرق بالقوانين فقط.. وحتى الآن لم تنته المشاكل والحروب بين البيض والسود في أمريكا وفي جنوب أفريقيا العنصرية.

واجه الإسلام المشكلة بحلول مؤقتة لإصلاح حياة الرقيق وحلول للمستقبل من شأنها أن تصفي هذا النظام وتلغيه تدريجياً. فأما الحلول المؤقتة فتتمثل في أنه:

١ ـ ضمن للرقيق معاملة إنسانية كريمة عن طريق الإشعار بالمساواة الإنسانية بين الجميع فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلاَّ بالتقوى.

٢ ـ كررت التوجيهات القرآنية والنبوية وأكدت على المسلم أن يتقي الله في معاملته للرقيق فإنه مسؤول أمام الله عنهم.. «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم..».. حتى أنه نهى المسلم عن أن يقول عن الرقيق عبدي وأمتي.. بل يقول: فتاي وفتاتي. هذا عدا عن إطعامهم مما يأكل والإنفاق عليهم..

٣ ـ حرر كثيراً من الأرقاء:

أ ـ بالعتق رغبة بالثواب العظيم.

ب ـ جعل كفارة بعض الذنوب إعتاق رقبة.

ج ـ نظام المكاتبة حق للرقيق.

وقد أعتق النبي ﷺ ٦٣ رقبة. وعائشة ٦٧ رقبة. والعباس ٧٠ رقبة وعبد الله بن عمر ١٠٠٠ رقبة. وذو الكلاع ٨٠٠٠ رقبة وعبد الرحمن بن

عوف ٣٠٠٠٠ رقبة.. حتى نال أرقاء الجاهلية كلهم حريتهم قبل انقضاء عهد الراشدين. وذلك بتنافس المؤمنين على العتق.

وأما حل المشكلة على المدى الطويل ـ كحل مستقبلي ـ: فقد حرم الإسلام تحريماً باتاً أن يؤسر حر فيسترق. «قال الله تعالى: ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة. ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بي ثم غدر. ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه. ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»(١). وبقي المصدر الوحيد للرق في ذلك الوقت هو أسرى الحرب وكانت الدول كلها تسترق أسرى الحرب. وقد أشار القرآن إلى أن ذلك ليس هو الحل الأمثل فقد وجه أتباعه في الحرب ﴿إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾(٢). فقد حدد أسلوبين:

١ ـ إما مناً أي: إطلاقاً بدون مقابل.

٢ ـ أو فداء بقبول الفدية.

وبقي الأمر على ذلك حتى تهيأت الظروف العالمية لإلغائه وكتبت معاهدات عالمية بتحريم استرقاق أسرى الحرب وحددت لهم حقوقاً ومعاملة معينة. قد سبق الإسلام إلى تقريرها حتى أن المؤمنين كانوا يؤثرون الأسرى على أنفسهم بالطعام الطيب ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾(٣).

وهكذا كان للإسلام دور كبير في تحرير الإنسان وإنهاء الرق(٤)..

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة محمد: الآية ٤.

(٣) سورة الإنسان: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٤) ولو حافظ المسلمون على التزامهم بهذه التوجيهات القرآنية لكانوا أسبق الناس إلى إنهاء الرق.. ومن العجيب أن بعض المسلمين يدافع عن نظام الرق ويظن أنه بذلك يدافع عن الإسلام؟

ولكن المشوار لم ينه بعد.. وما زال الإنسان يعاني في جنبات الأرض من الظلم والاستعباد... وعلى المسلمين أن يتابعوا الطريق فيحرروا أنفسهم أولاً ثم ينطلقوا إلى العالم ومعهم نور الله لينقذوا به المستضعفين والمستعبدين... بل لينقذوا المستكبرين أيضاً من العبودية للشيطان والهوى.

نعو إلى المكاتبة. وهي الأسلوب الذي من شأنه إعادة بناء شخصية العبد حتى يصبح مهيأً لحياة الحرية وأعبائها. فإن طلب العبد ـ أو الأمة ـ من سيده المكاتبة فعلى السيد أن يوافق بشرط: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.. بعض المفسرين قال: الأمر في الآية يفيد الوجوب. واستدلوا بأن عمر أمر أنس بن مالك أن يكاتب سيرين وذكر الآية وحلف عليه ليكاتبه.

وطائفة أخرى قالوا: الأمر للاستحباب واستدلوا بأن الله قال: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.. وهذا أمر خاص بالسيد ورأيه في عبده ولا يستطيع الحاكم أن يقدره.. وفسروا تصرف عمر على أن عمر لم يكن مجرد حاكم للمسلمين بل كانت علاقته بهم كالوالد بأبنائه.

وحين نتأمل الآية ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ نتذكر أهمية وضع الأمور في مواضعها وهي الحكمة.. والفكر ينبغي أن يجتهد باستمرار كي يضع لكل حالة ما يناسبها من تصرف.. بالشكل الذي يحقق مصلحة الفرد والمجتمع. ففي المكاتبة لا بد أن يراعى:

١ ـ أهلية العبد لأداء مال المكاتبة من كسب يده حتى لا يكون عالة على الناس.

٢ ـ أمانته بحيث يكون جديراً بأن يعاهده سيده ويثق بأمانته.

٣ ـ ألا يكون في العبد نوازع خلقية سيئة أو عداوة للإسلام بحيث

تؤدي حريته إلى إيذاء المجتمع المسلم.. ولا ننسى أن أكثر الأرقاء كانوا من أسرى الحرب فقد يحملون في أنفسهم الرغبة في الانتقام.. كما فعل أبو لؤلؤة حين طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وتنص المكاتبة على التعهد بإعطاء الحرية للعبد إن دفع مبلغاً محدداً ضمن مدة معينة فإذا أدىٰ العبد المال ولو قبل انتهاء المدة المحددة أصبح حراً. ويستدل على ذلك بما رواه سعيد المقبري عن والده قال: اشترتني امرأة من بني ليث في سوق ذي المجاز بسبعمائة درهم ثم قدمت فكاتبتني على أربعين ألف درهم فأديت إليها عامة المال ثم حملت ما بقي فقلت: هذا ما لك فاقبضيه. قالت: لا والله حتى أجده منك شهراً بشهر وسنة بسنة. فخرجت به إلى عمر بن الخطاب فذكرت ذلك له فقال عمر: ارفعه إلى بيت المال. ثم بعث إليها فقال: هذا مالك في بيت المال وقد عتق أبو سعيد فإن شئت فخذيه شهراً بشهر وسنة بسنة. قال فأرسلت فأخذته[1].

﴿... وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ...﴾:

والأمر في الآية للجميع: للسيد والحاكم والمسلمين. فالسيد عليه أن ينقص قسماً من المال الذي اتفق عليه مع عبده. (وكان علي يضع عن عبيده ربع مال المكاتبة). والحكومة تصرف جزءاً من مال الزكاة في مساعدة المكاتب كما جاء في مصارف الزكاة «وفي الرقاب». والمسلمون يساعدونه.

وفي الآية لفتة لطيفة ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فالمال مال الله أعطاكم إياه.. وهو قادر على نزعه منكم إن قصرتم وبخلتم.

---

(١) رواه الطبراني.

٥ ــ منع البغاء:

﴿ . . . وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ . . . ﴾:

كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها. (وهذا شبيه بما يجري اليوم في بيوت الدعارة والرقيق الأبيض). وقد كان لعبد الله بن أبي ــ رأس النفاق في المدينة ــ ستة إماء يكرههن على البغاء طلباً للمال ورغبة في أولادهن ليكثر منهم عبيده وأحياناً يكرم ضيفه بتقديم إحدى جواريه له. فأسلمت واحدة منهن وهي (معاذة) وتابت ولكن عبدالله تشدد عليها فشكت ذلك إلى أبي بكر فذكر ذلك للنبي فأمره بقبضها. فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكاتنا فنزلت الآية[١].

ونلاحظ في الآية قوله: ﴿ فَتَيَٰتِكُمْ ﴾ ولم يقل إمائكم.. وهي إحدى اللمسات الحانية في تكريم الرقي. أما قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ فلا يعتبر شرطاً بمعنى أنها إن رغبت في البغاء ولم ترد التوبة فلا حرج أن يسمح لها. ولكن القصد هو لفت النظر إلى أن الفتاة حين ترتكب فاحشة برغبتها فالتبعة عليها ولا يؤاخذ القانون أحداً غيرها. أما حين يكرهها سيدها فهو الذي يعاقب ويمنع. والإكراه له صور مختلفة.. إذ أن لكل شخص نقطة ضعف يمكن أن تستغل لإكراهه على أمر ما.. ولكن الإنسان يمكن علاجه وتحريره من ضعفه فالتعليم والتزكية تعطيه حصانة فكرية وتجعل إكراهه أصعب.

﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ وقد ورد أن شر المكاسب مهر البغي.

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير.

وبذلك قررت الآية أن البغاء جريمة تخالف القانون في البلد المسلم. وأن الذي يكره أمته على البغاء تسقط ملكيته عنها. ويحررها الحاكم.

﴿... وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾:

للتي أكرهت على ذلك وتابت.

٦ ـ تعقيب: على كل الأوامر والاحتياطات السابقة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

في هذا التعقيب إشارات هامة:

١ ـ هذه الآيات السابقة مبينات واضحات ليس فيها إشكال أو غموض فلا عذر لكم بتركها ولا مجال لأن يحتج قائل بأنه لم يكن عنده علم بهذه الأوامر.

٢ ـ ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فلقد حدثكم القرآن عما حدث للأقوام من قبلكم حين أهملوا شرائع الله عامة وتنظيمه للعلاقة بين الرجل والمرأة خاصة. فلقد حدثكم عن قوم لوط وما حل بهم وعلق على ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فلقد جعل عقوبات المعتدين آيات ودلائل للمتوسمين. والسمة هي العلامة. والمتوسمين هم الذين يبحثون عن العلامات ويستدلون بها على الطريق الصحيح. إن هؤلاء يستفيدون من تجارب الآخرين.. ويدركون أن الفواحش لو تركت لأكلت المجتمع وقضت عليه. وأن هذه الاحتياطات ضرورية لإعطاء المجتمع حصانة أخلاقية لا يستهان بها.

٣ ـ في الآية دعوة لاستنفار الجهد لدراسة التاريخ وأحوال الأمم

لكشف السنن وتسخيرها. وهي إحدى الآيات الكثيرة التي تحث المسلم على النظر في التاريخ.. ولكن العالم الإسلامي لم ينتبه لها.. وكان أول من أثرت فيه هذه الدعوة فنظر إلى التاريخ على أنه علم: ابن خلدون. ومراحل العلم ثلاثة:

(١) الملاحظة لنماذج متعددة. (٢) كشف القانون. (٣) تسخيره لفائدة الإنسان.

وكل بحث يمر بهذه المراحل الثلاثة يوصف بأنه علم. ولهذا أمر القرآن بالسير والنظر في أحوال السابقين لكشف القانون فالتاريخ يسير وفق سنن «سنة الله في الذين خلوا من قبل» تخضع لها كل الأقوام.. ولهذا فإن بمقدور الإنسان أن يتجنب الأخطار إن درس التاريخ واعتبر به بكشف سننه وتسخيرها. يقول حكيم صيني: كما أن الإنسان يحتاج إلى النظر في المرآة ليعدل قلنسوته فإنه يحتاج إلى النظر في التاريخ ليعدل أفكاره ـ حتى يصحح مساره ـ. وكما يقول الشاعر:

من لم يعِ التاريخ في سره ... لم يدرِ حلو العيش من مره
ومن وعى أخبار من قد مضىٰ ... أضاف أعماراً إلى عمره

إن دراسة التاريخ تختزل تجارب البشرية للإنسان وتعطيه خبرة الأجيال من قبله. فإذا كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.. فكذلك لا ينبغي للمؤمن أن يقع في أخطاء من سبقه دون أن يعتبر. ولهذا فإن ويلز حين فكر أن يقدم عملاً ينتفع به الإنسان لم يجد أفضل من أن يكتب تاريخاً للعالم. لأنه شعر أن الإنسان أحوج ما يكون إلى معرفة تاريخ الإنسان ليصحح مساره ويوحد أعماله الإنسانية ويتابع مسيرته في الارتقاء.

٤ ـ ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾: والموعظة من الوعظ. وهو الكلام

المؤثر الذي يعرض الأمور بنتائجها وعواقبها. . فالوعظ هو العرض العلمي المقنع المؤثر. والمتقون يتبصرون في الأمور فيتعظون وليس هذا إلاَّ للمتقين الذين يحذرون ويشمرون لحماية أنفسهم من عذاب الدارين فيفعلون الواجب ويتركون المحرم. يقول المودودي عن هذه الآية: [لا يمكن أن تعقب صيغة للأحكام بكلمات للزجر والتوبيخ أشد من هذه الكلمات والأمة تدعي الإيمان وتتلو هذه الأحكام في القرآن ليل نهار. ثم لا تفتأ تعاكسها بكل جرأة وجسارة. . !!].

• • •

٤ ـ فاصلة

وتتضمن مواضيع تغذي الإيمان وتجليه في أعظم صورة وتبين عواقبه.

١ ـ آية النور:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ... ﴾:

هذه الآية سميت بها السورة. وجاءت بعد هذه التوجيهات الاجتماعية لتفتح الأذهان وتذكر أولي الألباب بأن هذه الأوامر والمواعظ من عند الله الذي هو نور السموات والأرض وهي نور لحياتكم تضيء الطريق فتحميكم من الاصطدام بالعوائق أو الوقوع في المزالق.

إن القلم يقف عاجزاً أمام الآية.. ماذا أقول؟!

نحن نفسر الآيات لنشعر بصلة مع القرآن ولكننا لا نستطيع أن نعبر عن المعنى بأفضل من آيات القرآن.. بل كثيراً ما نعجز عن نقل الأثر الذي تخلفه الآية في النفوس.. وكثير من الآيات لا تحتاج إلى تفسير بقدر ما تحتاج إلى قلب مفتوح واعٍ يتلقى الآيات وكأنها تنزل عليه.

والنور هو المقصد الأساسي للإنسان لأنه يكشف له الطريق ويجنبه العثرات والضلال ويخرجه من الظلمات. وقد ورد عن النبي ﷺ أدعية كثيرة يطلب فيها النور. من مثل دعائه عندما كان يخرج لصلاة الصبح في

المسجد «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً»[1] . ويستغيث بنور الله. مثل قوله ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك»[2] . وقوله: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن..»[3] .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ :

الله نور هذا الكون كله. والنور ما كان ظاهراً بنفسه ومظهراً لغيره. وليس معنى النور هنا أنه شعاع يسير بسرعة كذا وكذا... فليس القصد هو المدلول المادي وإنما أنه سبب ظهور كل شيء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج وجوده إلى برهان.. والله أعلم. ويدعم ذلك أنه وصف القرآن بأنه نور ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾[4] . ووصف محمداً ﷺ بأنه نور ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[5] ، ـ فقد قال المفسرون أن الآية تشير إلى الرسول ﷺ ثم القرآن، والله أعلم ـ وقد درج الناس على القول: العلم نور.. كل ذلك لا يعني النور المادي.

على كل حال لا أحبذ الخوض في هذا الموضوع ويكفي أن نؤمن أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾، فالآية تثبت الصفات وتنفي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) ورد في الصحيحين.

(٤) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٥.

المثلية.. ولا خير في الخوض في علم الكلام الذي كان أحد أسباب تفرق المسلمين وتنازعهم.

﴿... مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ...﴾:

في الآية مثل لتقريب عظمة نور الله.. والمشكاة هي الكوة الصغيرة في الجدار يوضع فيها المصباح فتحصر نوره وتجمعه. والمصباح محاط بزجاجة كأنها كوكب دري في صفائها وبريقها..

﴿... ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ...﴾:

فالمصباح يوقد بزيت شجرة مباركة ـ كثيرة المنافع ـ زيتونة لا يواريها شيء عن الشمس منذ طلوعها إلى غروبها وبذلك يكون زيتها أصفى وألطف حتى أنه يكاد يضيء قبل أن يشتعل:

﴿... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ ...﴾:

وهكذا تجمعت لهذا المصباح جميع أسباب النور:

﴿... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ ...﴾:

قيل بأن المصباح مثل لنور الله والمشكاة هي الكون والزجاجة الشفافة هي حجاب الله فهي في حقيقتها لا تحجب نور الله.. ولكن العميان وحدهم هم الذي لا يبصرونه. وإن أبصارنا الضعيفة لا تدرك إلاّ الأنوار المحدودة.. أما النور المطلق الذي لا ضد له ولا زوال وهو محيط بالكون من كل جهة فإن الأبصار كليلة عنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ﴾ ولكن المؤمنين يبصرون آثار نوره في كل مكان فيتعلقون به.

﴿... يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ...﴾:

نتذكر هنا موضوع عمل الله وعمل العبد في القرآن والعلاقة بينهما. . فإذا كانت بعض الآيات قد ذكرت عمل الله وحده ــ مثل هذه الآية ــ فإن كثيراً من الآيات الأخرى قد وضحت العلاقة بينهما ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾. . فعمل العبد هو السبب وعمل الله يأتي كثمرة أو عطية مقابل جهد الإنسان. . فمن لم يهتد إلى نور الله عليه أن يراجع نفسه وأعماله. فإن الله لا يهدي الخاملين المعرضين.

﴿. . . وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾. . . ﴾:

من رحمته سبحانه وتعالى بالناس يضرب لهم الأمثال ليقرب لهم الحقائق ويبسط لهم المفاهيم. وهو يعلم أي الأمثال يضرب ليكون أنفع للناس في إفهامهم، ويعلم من يستحق الهداية ممن لا يستحق.

وهكذا تلقي الآية في النفس إحساساً رقيقاً. . يجعل المؤمن يشعر أنه يمشي في النور. . وهذا يبعث الطمأنينة في نفسه. . كذلك يحس أنه يتحرك ونور الله مسلط عليه. فكل شيء فيه مكشوف. . أعماله مكشوفة كلها. . وقد سلط عليها النور. . وهذا يثير في نفسه الخوف والخجل.

٢ ــ النور في بيوت الله:

ذلك النور الفياض في السموات والأرض يتجلى ويتبلور في بيوت الله:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ. . . ﴾:

ما هي هذه البيوت التي يتجلى فيها نور الله. . ؟

قيل المساجد التي أمر برفعها أي بنائها وتطهيرها من الرجس والشرك واللغو.

وقالوا: هي بيوت المؤمنين. والمراد برفعها: رفع مقامها عند الله لأنها قامت على عبادة الله. والآية يمكن أن تشمل المعنيين. لأن المؤمن يذكر الله في كل مكان والعبادة لا تقتصر على المساجد ولكنها تشمل جوانب الحياة كلها.

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ والإذن يتضمن الأمر بالتنفيذ والرفع. و «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»[1]. وأن تطهر من الشرك ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[2]. ومن اللغو. وقد نهى رسول الله ﷺ عن البيع والتبايع وتناشد الأشعار ـ إلاّ ما كان منها يخدم الدعوة إلى الله ـ وأن ينشد أحد ضالته فيه. وذلك كي تكون المساجد منطلقاً طاهراً للحياة وملاذاً للمؤمن يلجأ إليه ليتطهر من أدران الدنيا ويستجم من غوغائها.

﴿يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾. خرج رسول الله ﷺ مرة على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا. قال: «آلله ما أجلسكم إلاّ ذاك؟» قالوا: ما أجلسنا إلاّ ذاك. فقال ﷺ: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة»[3]. وقال ﷺ: لا يعقد قوم يذكرون الله تعالى إلاّ حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده».

وقال عطاء: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام.. كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج..

---

(١) ورد في الصحيحين.
(٢) سورة الجن: الآية ١٨.
(٣) رواه مسلم.

والذكر هو شعار الإسلام.. كما أن للمبادىء شعارات يرددونها.. فشعار الإسلام: التهليل والتكبير والتسبيح والحمد. وهذا الشعار يدل على الأسس التي تحكم حياة المسلم. ولكن من المؤسف أن الشعار قد فقد معناه في عالمنا الإسلامي الآن.. وأصبح مجرد كلام يمر من اللسان إلى الآذان ولا يجاوزها.. ألا ترى إلى الأذان يصدح في كل يوم خمس مرات في عالمنا.. ولا يقض مضاجعنا..؟!

﴿... يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾:

وإن الله قد اصطفى من الزمان أوقاتاً محددة يطيب فيهاالذكر ويزيد فيها الأجر. والغدو والآصال يتضمن افتتاح اليوم وختامه بالذكر.. وفي وقت تجتمع فيه ملائكة الليل والنهار فتشهد للذاكر بذكره.. وهي أوقات يتجلى فيها الجمال والجلال في خلق الله وتذكر الإنسان بالبعث والموت والبداية والنهاية.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ...﴾:

في الآية تحذير.. فهناك أمور تلهي عن ذكر الله: المال والأولاد والبيع والتجارة.. كما قال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]. و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾[2]. وفي الآخرة يتحسر الخاسرون على غفلتهم وانشغالهم بالمال والأهل عن معالي الأمور. فهل يعني ذلك ترك الدنيا والانقطاع للعبادة..؟

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٩.

إن المال والولد نعمة من نعم الله.. إن لم نحسن التصرف بهم كانوا سبباً في هلاكنا. وإذا أحسنا التصرف معهم كانوا عوناً لنا. وعلى المؤمن أن يعطي الأولوية لحب الله وذكره ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[١] . وبذلك يستمتع بماله وولده ويسخرهم لما يرضي الله فيكون ذلك له من الباقيات الصالحات في الآخرة. وكما أخبرنا الرسول ﷺ فإنه لا يبقى للإنسان عند موته من ماله إلاَّ الصدقة الجارية ومن أهله إلا الولد الصالح.

فالمؤمنون قلوبهم متعلقة بذكر الله لا يشغلهم عنه مال ولا ولد.. فهم في غدوٍ ورواح إلى المساجد وقد ذكر من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاَّ ظله «رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه».

هل للمرأة صلة بهذا الأمر الإلهي؟

على المرأة المؤمنة أن تحرص على الصلاة في أوقاتها ولا تؤخرها.. كما أن حضورها مجالس الذكر ودروس العلم في المساجد يندرج تحت ذلك. ثم إنها يمكن أن تنال الأجر بتحريض زوجها وابنها وأخيها... على التوجه إلى المساجد والتعلق بها.

﴿... يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾:

من شدة الهول والرعب تبحث عن ملجأ أو مهرب. يقول الرسول ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلاَّ ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلاَّ ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلاَّ النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢] . فيومئذ يقول الإنسان أين المفر..؟

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٢) متفق عليه.

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ . . . ﴾ :

الله. . الله. . سبحانك ربي ما أكرمك. . !! انظروا إلى هذا الكرم وهذا الدلال الذي ينعم الله به على عباده الذاكرين. . !! إنه يعمد إلى أحسن أعمالهم فيكافئهم عليها ويتجاوز عن سيئاتهم وكأنها لم تكن.

يقول الرسول ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطي صحيفة حسناته»[1].

ليس هذا فقط بل ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾!! يقول الرسول ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[2].

﴿ . . . وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ :

والإشارة إلى الرزق هنا مقصودة لأن هؤلاء لم يشغلهم طلب الرزق عن ذكر الله. والرزق من عند الله. وهو يعلم من يستحق أن يعطىٰ. . ومن يزاد له بغير حساب.

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن الآية قد جمعت بين الخوف والرجاء. . فلقد كان هؤلاء الذاكرون ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ . . . ولا بد للمؤمن أن يكون في حالة توتر بين الخوف والرجاء حتى يتحرك بفعالية لأداء الواجبات ويبذل كل جهده للتقرب إلى ربه.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

٣ ـ مثل أعمال الكافرين:

وفي مقابل هؤلاء الذين منَّ الله عليهم بالنور والفضل يقف الكافرون وقد غشيتهم الظلمات..

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا... ﴾:

والآيات هنا تضرب مثلين لأعمال الكافرين. قد يكون الأول للمنافقين والثاني للكفار. وقد يكون المثل الأول لأعمالهم الحسنة التي ظنوا أنها ستنفعهم.. والثاني لعامة أعمالهم الضالة الظالمة.

ففي المثل الأول: يقول إن أعمال الكافرين كسراب في أرض مستوية منبسطة ـ وهي الصحارىٰ التي يظهر فيها السراب عادة ـ يتعلق به الظمآن ويظن أنه سيجد فيه الري.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ في يوم القيامة حيث تشتد حاجته إلى ما يخلصه ويدفع عنه العذاب.. فإذا به يكتشف الحقيقة المروعة.. وهي أن هذه الأعمال التي ظنها طيبة وأنها ستنفعه وتحميه.. قد طارت من يديه.. فلقد ضيع عمره بالأوهام.. وفاتت الفرصة وهو اليوم أمام ربه الذي كان يتهرب منه في الدنيا ولكن إلى أين المفر..؟!

﴿... وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾:

لماذا ضاعت هذه الأعمال؟ وقد وعد الله أن لا يصنع مثقال ذرة من العمل الصالح: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[1]. إن العمل الصالح لا بد أن يتوفر فيه شرطان:

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٠.

(١) الإخلاص. (٢) ـ والصواب. حتى ينجح في الدنيا ويقبل في الآخرة.. فإذا كان صواباً ولكن لا إخلاص فيه لله فقد يثمر في الدنيا حتى يخدع فاعله ويظن أن نفعه باقي.. ولكن الله لا يقبل في الآخرة إلاَّ ما كان خالصاً له. ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[1] . وإذا كان العمل خالصاً لله لكنه يفتقر إلى الصواب.. فلن يثمر النجاح في الدنيا.. اما في الآخرة فالله أعلم بحال صاحبه إن كان له عذر ويستحق المغفرة أم لا.

وأبرز مثال على ذلك فرقة الخوراج في تاريخنا التي عرف عنها ـ والحكم على الأكثرية ـ الإخلاص ولكنها بخروجها على المسلمين وأئمتهم بالسيف جانبت الصواب.

أمر آخر يستحق التأمل في الآية: لقد كان القرآن يخاطب العربي بأمثلة من واقعه ليدخل الأفكار والمعاني إلى وعيه ونفسه. ولا بد في الدعوة إلى الله من مخاطبة الناس على قدر عقولهم. ولهذا نجد في القرآن أمثلة كثيرة منتزعة من بيئة العربي ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[2] . وأمثلة زراعية مألوفة لدى معاصريه.. وهذا لا يعني أن الخطاب القرآني يناسب معاصريه أو تلك البيئة فقط.. فإن في القرآن مواضيع مستقبلية لم تخطر على بال الناس في ذلك الزمان.. من مثل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[3] . وحديثه عن مراحل تطور الجنين.. وأمره بالسير في الأرض لدراسة كيف بدأ الخلق.. وتبسيط المعاني بأمثلة صالحة لكل زمان مثل قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٣.
(٢) سورة الغاشية: الآية ١٧.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾[1] . وتشبيهه لمن يلجأ إلى غير الله ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾[2] . ونستفيد من ذلك أنه لا بد للدعاة إلى الله من أن يطوروا أساليب الدعوة ولغتها بما يناسب إنسان العصر وما وصل إليه من كشف وعلم.. بحيث يخاطب من خلال هموم الواقع الذي يحياه.. ولا يقدر على ذلك إلاَّ من رزق التفاعل العملي مع آيات الله واستطاع أن يجمع بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس في كل متناسق.. بحيث تشرح الثانية الأولى وتدعمها.

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . . . ﴾ :

المثل الثاني هنا لأعمال كلها ضلال وجهل وظلمات.. في بحر لجي عميق يتراكم فوقه الموج والسحاب..

﴿ . . . يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ . . . ﴾ :

بينما المؤمنون يستمتعون بنور على نور.. إنهم يتخبطون وسط هذا الظلام الدامس.. فلا يتبينون طريقاً ولا يهتدون إلى مخرج. إن هذا المثل يصور عاصفة بحرية ما كان بإمكان محمد ﷺ الذي لم يركب البحر ويشاهد أهواله أن يصفها. فالآيات تحمل دليلها معها.

﴿ . . . وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ :

فما أشقى ذلك المحروم.. وما أشد تخبطه.. والآية هنا تتحدث عن عمل الله وحده.. وينبغي فهمها على ضوء الآيات التي وضحت العلاقة بين

---

(١) سورة الملك: الآية ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤١.

عمل الله وعمل العبد من مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾(1).

٤ ــ تسبيح الكون:

نعود فنذكر هنا أن مواضيع القرآن أربعة:

١ ــ الله: خالق الكون والإنسان يراقب الإنسان ويجازيه.

٢ ــ الكون: خلقه الله وسخره للإنسان وهو دليل له على الله.

٣ ــ الإنسان: مسؤول أمام الله عن نفسه وعن الكون.

٤ ــ اليوم الآخر موعد الحساب والجزاء. وما يحصل فيه.

والسورة تتحدث عن النظام الأخلاقي للمجتمع والأسرة.. وتأتي الآيات هنا لتتحدث عن النظام الكوني.. فكأنه يقول لنا: إن الذي وضع قوانين الكون هو الذي يأمركم بقوانين الحياة البشرية حتى يحدث التناسق في الحياة. لأن آيات الآفاق والأنفس مرتبطة بآيات الكتاب.. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾(2).. وإن من يخرج على قوانين الحياة البشرية لا بد أن يصطدم ويهلك نفسه كما يصطدم من يخرج على قوانين المرور.

والآيات هنا تتحدث عن الكون وتسبيحه لله.. أي من حيث هو مخلوق خاضع لأمر الله ويدل على قدرة الله.. والآيات تبدأ بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتتكرر أثناء المقطع.. وهو أمر يستحق منا التأمل. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. حث على النظر.. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾؟! وللرؤية المطلوبة في القرآن أنواع:

---

(1) سورة الحديد: الآية ٢٨.

(2) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

١ ـ **رؤية تاريخية**: مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟...﴾[(١)]، فهي رؤية تتم من خلال دراسة التاريخ. وقد تكون الحادثة وقعت في التاريخ.. ويتكرر ما يماثلها.. وهي:

٢ ـ **الرؤية المثلية**.. من مثل: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾[(٢)].

٣ ـ **الرؤية الكونية**.. وفيها يلفت النظر إلى الكون ومظاهر الإبداع فيه ويحث الإنسان على كشف سننه. والآيات هنا من هذا النوع. ومن المعروف أن مراحل العلم تبدأ من النظر: **الملاحظة** ثم تأتي المرحلة الثانية وهي **كشف القانون**. ثم الثالثة وهي **التسخير**.

ومن المؤسف أن لا يعي المسلمون هذا الدفع الهائل في هذه الآيات لدراسة سنن الكون حتى تقزم مفهوم التدين وطاعة الله واقتصر على ممارسة بعض الشعائر والتحدث عن بعض الأخلاق. أما أن يسير المسلم في الأرض ويستعمل ما أعطاه الله من وسائل للمعرفة فيدرس ويكشف ويسخِّر.. فذلك أمر لا وجود له وهو على أحسن الأحوال من الكماليات..

والحقيقة أن الدين يتضايق من تأخر العلم.. ولا يفهم على حقيقته إلاَّ بتقدم العلم. وذلك أن القرآن يقدم تفسيراً للوجود ونظاماً لترقية النوع لا يدرك قيمته حق الإدراك إلاَّ العلماء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾:

فالكون مخلوق خاضع لأمر الله يسبح له.. ولكن كيف؟ في آيات

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٣.

أخرى قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1] . والفقه هو الإدراك. ونحن لا ندرك كيف يكون هذا التسبيح ولكن نؤمن به. هل هو اختلاج الحياة في الخلية الحية..؟ أم هو في دوران الكهارب حول النواة في الذرة..؟ أم أنه رمز للخضوع لسنن الله..؟! الله أعلم.. وما زال هذا العالم الذي نعيش فيه زاخراً بالمجهول والأعاجيب.

ومعنى التسبيح: التنزيه عن كل نقص وعيب. ونحن نسبح الله في الركوع والسجود وينبغي أن نعي حقيقة هذا التسبيح.. فإنه ثقيل في ميزان الله إن أديناه بروحه.. «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده. سبحان الله العظيم»[2] .

﴿... وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ...﴾:

وهي دعوة صريحة لتأمل الطير وكيفية طيرانها. فإن هذا هو الذي كشف قانون الطيران ومكن الإنسان من تسخيره في صناعة الطائرات ووسائل النقل الجوي.. ولكن آلاف السنين قد مضت والطيور تطير أمام الإنسان.. وهو غافل عنها.. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3] . واستمر المسلم غافلاً عن نداءات القرآن.. حتى سبقه الآخرون في القرن الأخير إلى كشف الطيران وتسخيره.

﴿... كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ...﴾:

ومعنى الصلاة يختلف بحسب الفاعل. فصلاة الله على الأنبياء وبعض البشر: هي رفع لشأنهم وذكرهم ومقامهم. وصلاة الملائكة على النبي

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٥.

وعلى المؤمنين: هي الدعاء لهم. وصلاة المخلوقات: هي ذكرهم لله. ونحن لا نعلم كيفيتها. لكن الله تعالى ليس بعجزنا وقصورنا..

﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

فهو يسمع تسبيح كل مخلوق وصلاته.. ويعلم نجوى كل إنسان ودعاءه.. إنه يعلم السر وأخفى.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾:

كيف تغيب عنا هذه الحقيقة التي لا جدال فيها..؟ أين تهرب من الله إن خالفت أمره..؟!

هل تستطيع الخروج من السموات والأرض..؟! هل تستطيع الانفلات من المصير إليه..؟! فكيف تتجرأ على مخالفة أمره..؟!

ثم يشير إلى دورة الماء في الأرض مكرراً حثه السابق على الرؤية والنظر:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ...﴾:

أيها الإنسان.. انظر واكشف القانون حتى تسخر ذلك لمصلحتك.. والماء عنصر الحياة الأول وإن بإمكانك أن تسخر السحاب ـ وقد أثبتت الآيات أنه مسخر للإنسان ـ وتنهي مآسي الجفاف.

وأفضل منهج في تفسير آيات الكتاب هو الرجوع إلى الأمر في الواقع ومراقبته كيف يحدث.. وعند ذلك نستطيع أن ندرك مدلول الآية.. ولا يغني عن ذلك شرح الألفاظ.. وإن قدم عوناً. ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي يسوق السحاب ثم يجمعه فوق بعضه حتى يصبح ثقيلاً متراكماً.

﴿... ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ...﴾:

وعندها يتساقط المطر من بينه.

: ﴿... وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ...﴾

وإن للسماء جبالاً..!! وهو ما يراه الراكب في الطائرة.. إنها السحب والغيوم. وذلك أمر لم يكن يدركه الناس في ذلك العصر.

: ﴿... فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ...﴾

هذا السحاب يحمل خيراً يعم وشراً يخص.. فهو نعمة غالباً.. ونقمة أحياناً. والآية تنص على عمل الله وحده.. ولكننا أصبحنا ندرك ارتباط عمل الله بعمل الإنسان.. فلقد قال لنا الله في آيات كثيرة: أنا لن أعمل لكم شيئاً حتى تعملوا أنتم.. فالإنسان هو الذي يقرر مصيره.. وهو الذي يثبت لله استحقاقه للرزق والبسط في العلم والعمر والأجر. ولقد سبق أن قرر أن من أراد الدنيا وسعى لها وكشف قوانينها وسخرها.. فإن الله يعطيه منها على قدر علمه وجهده.. بغض النظر عن إيمانه أو كفره. كما هو مقرر في سورة الإسراء. أما الآخرة فلا تعطى إلاّ للمؤمن.

: ﴿... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾...﴾

من أجل مصلحة الإنسان.. وكل هذه الأحداث الكونية تستحق التأمل والانتباه:

: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

فلا يجني الفائدة ولا يدرك العبرة إلاّ من استخدم بصره حق الاستخدام.. وأما العميان فإنهم غافلون سادرون لا تحرك فيهم آيات الله ساكناً.. حتى إذا قامت الساعة ونالوا جزاءهم عندما أدركوا السر وتحسروا.. ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة تبارك: الآية ١٠.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ. . . ﴾:

والآية تتحدث عن بدء الحياة. والدابة: كل من دب على الأرض من الأحياء. وقد بدأ الخلق من الماء.. وما زال الماء حتى الآن هو سائل الحياة والعنصر الأساسي في الخلية الحية ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ ﴾. وقد أمر الله بالسير في الأرض ودراسة بدء الخلق ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾(١). صحيح إن الأمر في الآية يعتبر فرض كفاية يطالب به من لهم القدرة على الدراسة والبحث.. ولكن الأمة كلها تأثم من إهمال هذا الأمر.. وتجني في الدنيا عاقبة إهمالها فتصبح متخلفة مسخرة لغيرها ممن درس وكشف.

ورغم أن الإحياء كلهم قد خلقوا من أصل واحد وهو الماء.. لكن الله نوَّع فيها أشكالاً مختلفة تشير الآية إلى بعضها:

١ ـ ﴿. . . فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ. . . ﴾: كالزواحف.

٢ ـ ﴿. . . وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ. . . ﴾: كالإنسان والطير.

٣ ـ ﴿. . . وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ. . . ﴾: كالمواشي وأكثر الحيوانات.

والآية تثير اهتمام الإنسان لدراسة علم الأحياء والحيوان.. ومعرفة خصائص هذه الكائنات وتوجه الإنسان إلى التصنيف والفرز إلى فئات محددة.. كي يتحول الإنسان من النظر العابر إلى الدراسة العلمية لما حوله من مظاهر الخلق والإبداع.. وعندها تتجلى له قدرة الخالق أكثر وأكثر:

﴿. . . يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ ﴾:

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

وينبغي أن تصبح العلوم مساعدة لفهم هذه الآيات لا مشوشة لأذهان بعض الناس كما هو حاصل في كثير من الكتب العلمية حيث تعرض المواضيع بشكل جاف منقطع عن تدبر قدرة الله وإبداعه. وكم نحن مقصرون في عرض التفسير المناسب للآيات في عصرنا هذا.. إذ كان الأولى بنا أن نستخدم الأفلام العلمية التي تعرض الكائنات الحية وتنوّع أساليب حياتها.. عند هذه الآية.

ويأتي التعقيب على تسبيح الكون وروعة الخلق فيه:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾:

والآيات هنا تشمل آيات الكون (الآفاق والأنفس) وآيات الكتاب.. وكلها تهدي إلى الله. ولقد سبق أن جاء التعقيب على احتياطات الأمن الأولى في السورة بمثل هذا التأكيد ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ... ﴾. ويبدو أن هذا التأكيد يتناول آيات الكتاب خاصة.. فهي مبينات لا غموض فيها.. وبالتالي لا عذر لتاركها..

وفي القرآن إلحاح كثير على أهمية البيان. فالكتاب مبين والآيات بينات.. ومن أعظم النعم التي من الله بها على الإنسان (البيان) ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾.. ومن أخطر التكاليف التي طلبت من الذين أوتوا الكتاب ــ وهي تشمل كل أمة نزل عليها كتاب سماوي بما فيهم المسلمون ــ البيان. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[1].. وإن أغلب انحراف المسلمين ناشىء عن فقدان البيان. وينبغي أن ننتبه إلى أن البيان أمر أعظم من مجرد البلاغ ــ أو التبليغ ــ إذ أن ترك التبليغ يؤدي إلى عدم معرفة الآيات ونسيان الكتاب. أما ترك

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

البيان فيؤدي إلى التحريف وهو معرفة الآيات ولكن فهمها على غير وجهها.. أو عدم فهمها بالمرة.. والمشكلة هنا أعظم.. إذ يظن المسلم أنه بخير وأنه يطبق آيات ربه.. بينما قد يكون من الذين يعاكسون الآيات ويبتعدون عن مقاصدها. إن ترك التبليغ يؤدي إلى الكتمان.. وترك البيان يؤدي إلى التحريف وسوء الفهم.. وكلاهما خطير.. ولا بد أن نلاحظ كيف سبقت الإشارة إلى البيان ـ في الآية ـ على ذكر الهداية:

﴿... لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ...﴾:

فالهداية تأتي بعد البيان.. ولقد أعطى الله فرص الهداية للناس حين بيَّن وأنزل الآيات المبينات.. وطالب العلماء بالبيان.. وبهذا يصبح الضلال ناتجاً عن تقصير الناس. فالآية تشير إلى ذلك بوضوح وإن كان السياق يذكر عمل الله وحده ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾...

إن بعد الناس عن الهداية معناه أنه لم يحدث البيان الكافي والمناسب لعصرهم وهذا من شأنه أن يشحذ همة العلماء لينشطوا إلى البيان ويطوروا أساليبهم فيه.. وإنها لمسؤولية أمام الله عن هذا الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.. وما أثقل هذه الأمانة.. وما أوخم العواقب التي تتجرعها الأمة من التفريط في أداء هذه الأمانة..

﴿... وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾:

ما هو الصراط المستقيم؟ هو الطريق الذي يوصلك إلى الهدف بأقل وقت وجهد ممكن. والحقيقة أن أكثر الناس متفقون على هدف واحد.. وهو الوصول إلى السعادة في الدنيا وتحقيق السلامة بقدر الإمكان.. ولكن المسلم أبعد نظراً في أهدافه فهو يريد سعادة الدنيا والآخرة. وهو أوسع صدراً من أن يقصر السعادة على ذاته.. فهو يريد السعادة لأمته ولأكبر قدر

من الناس.. على كل حال فإن سعادة الآخرة لا تتعارض مع سعادة الدنيا إلاّ عند قصيري النظر الذين لا يرون إلاّ العاجلة ولا يفكرون فيما هو خير وأبقى. هؤلاء يؤثرون الراحة على أداء الواجب ــ مثلاً ــ لكنهم سيكشفون أن هذه الراحة العاجلة قد سببت لهم متاعب كثيرة على المدى الطويل.. إن الأم التي لا تريد أن تتعب نفسها في معرفة أفضل الطرق في توجيه أولادها.. وتتكاسل عن بذل الجهد اليومي في التفاعل معهم وتسديد تصرفاتهم.. هي التي ستتجرع آلام العقوق منهم عندما يكبرون. وصدق من قال:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسر من التعب

وهكذا نرى أن كل الناس يحبون أن يصلوا إلى السعادة الكبرى والراحة الكبرى.. لكن المشكلة كامنة في عدم إدراك أفضل طريق للوصول إليها.. وأفضل طريق هو أقصرها وأقلها تكاليفاً.. وفي كشف هذا الطريق فليتنافس المتنافسون..

والناس الآن يتنافسون في الصناعة.. لإنتاج أفضل الأجهزة التي تحقق أحسن النتائج في أقل وقت وجهد ممكن.. ولهذا تتطور الوسائل يوماً بعد يوم.. ولكن في جوانب أخرى من الحياة ما زلنا نلف وندور ولم نكشف بعد الصراط المستقيم.. نحن المسلمون مثلاً.. نريد أن نحقق أمة مسلمة تلتزم الإسلام في حياتها.. ولكننا منذ سنين نلف وندور ولم نستطع أن نكشف الصراط المستقيم الذي يوصلنا إلى هذا الهدف.

وقد وصف الإسلام بأنه الصراط المستقيم لأنه الطريق الذي يحقق للفرد والمجتمع السعادة بأقل وقت وجهد ممكن.. وعلى المعترضين أن يقدموا البرهان على عكس ذلك.. لقد دهش المؤرخ ديورانت ــ عندما تحدث عن الإسلام وانتشاره ــ من النقلة الهائلة التي حققها المسلمون

خلال وقت قياسي قصير.. من مرحلة: أعراب في بادية.. إلى حضارة زاهرة اكتسحت من رقعة الأرض مساحات لا يستهان بها.. وأخذت تضخ العلوم إلى سائر الأمم من حولها..

وينبغي أن ينتبه المسلمون إلى أن الإنسان بالكشف والتسخير المستمر يمكن أن يدخل كثيراً من التعديلات والتحسينات على الصراط المستقيم. وإن تطور الوسائل يقرب البعيد ويوفر الجهد.

٥ ـــ امتحان الإيمان بالطاعة:

والتعقيب السابق يربطنا بما يأتي من الآيات في وصف أحوال المنافقين.. فلقد أنزل الله الآيات المبينات ويسر للناس سبل الهداية.. وهؤلاء المنافقون قد وصلتهم الآيات وعرض عليهم البيان ومع ذلك فقد اختاروا الضلال على الهدى.. وتركوا الصراط المستقيم ودخلوا في المتاهات لأنهم آثروا العاجلة ولم ينتبهوا إلى ما هو خير وأبقى. فهم مخدوعون يظنون أنهم يخدمون أنفسهم ويحققون لها السلامة والسعادة.. ولكن هيهات أن يسعد ذو الوجهين.. وكيف يصل إلى التوازن والصحة النفسية من آثر التذبذب بين الحق والباطل..؟!

ولقد سبق أن حدثتنا الآيات عن المؤمنين الذين يتجلى نور الله في قلوبهم ويضيء لهم جوانب حياتهم.. وعن الكافرين الذين حرموا أنفسهم من النور فهم في ظلمات بعضها فوق بعض والآن يفصل في وصف النموذج الثالث الذي هو أكثر تعقيداً وخطراً على الأمة وهم **المنافقون**:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾:

الآيات تحدد الصورة بصفات:

١ ــ إعراضهم عن الطاعة. فهم قوم يقولون ما لا يفعلون كما قيل في المثل: (كلام كالعسل وفعل كالأسل)، والقرآن هنا يعتبر هذا الموقف دليلاً على عدم الإيمان ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾.. ولا ننسى أن المؤمن تعتريه لحظات من الضعف يقترب منها من صفات المنافقين.. ولكنه يسارع في العودة.. ألم يعاتب الله الصحابة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾[1]. ولهذا ميز العلماء بين نوعين من النفاق: نفاق في العقيدة (وهو الحقيقي). ونفاق في العمل وهو التقصير في الأعمال.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨﴾:

٢ ــ لا يقبلون التحاكم إلى الله والرسول. وإنما يحتكمون إلى العادات والتقاليد والأهواء. والله تعالى يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾[2]. فيجعل للإيمان شرطين: ١ ــ التحاكم إلى الله ورسوله. ٢ ــ الرضى القلبي بهذا الحكم والتسليم له.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩﴾

٣ ــ يأخذون من حكم الله ما يناسب هواهم. فهم لا يتحاكمون إلى الكتاب والسنة إلاّ إذا كان الحق لهم. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾[3]. إن

---

(١) سورة الصف: الآية ٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٣) سورة الحج: الآية ١١.

هؤلاء قد تركوا طريق الواجبات وأسرعوا في اتباع كل من يلوح لهم بشيء من الحقوق.. وإن حضارة الأمة لا تبنى إلاّ بأداء الواجبات.. والذين ينزلقون إلى خط المطالبة بالحقوق يشكلون موضع خلل في البناء. ولا بد للمؤمن من مراجعة الذات فإن المرض الفكري يمكن أن يعدي.. وكثير من المسلمين يذكر من الأحكام ما يناسب مصالحه.. فالأم قد تمنع ابنتها من الخضوع لأمر الله بحجة أن من واجب البنت طاعة أمها فهي تتمسك بقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وتتناسى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[1] .. وكذلك الزوج قد يردد على مسامع زوجته ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ويتناسى حديث رسول الله ﷺ «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[2] .. ويتناسى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[3] . وكثير من الناس يُسرُّ بالأحكام التي توافق عاداته وهواه. أما الأحكام التي تحتاج إلى جهد وصبر وثبات فيتركها بحجة أنه اختار الوسط.. ولا داعي للتشدد. لكن القرآن يقول عن ذلك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[4] . وإن دين الله هو الوسط ومن يترك بعض أوامره فقد اختار التهاون لا الحالة الوسط.

٤ ــ فما هي الأسباب التي تدفعهم إلى هذه المواقف؟

(١) سورة لقمان: الآية ١٥.
(٢) رواه البخاري.
(٣) سورة النساء: الآية ١٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ٨٥.

١ ـ ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ. . . ﴾:

وهو سؤال للتقرير فهم في الحقيقة مرضىٰ القلوب. وقد تكرر في القرآن وصف المنافقين على أنهم ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.. ما هو مرض القلب؟ الأرجح أن يكون القصد بالقلب هنا جهاز التمييز والإدراك عند الإنسان. ومرضه أن يحدث فيه خلل يعطله عن أداء وظيفته.. فهل مرض القلب هو مرض النفس؟ أم أنه تشوش فكري ناشيء عن أفكار سيئة باطلة ولكنها مسيطرة على الفكر.. هذا ما فهمناه حتى الآن والله أعلم. والرسول ﷺ قد قرر أنه ما من داء إلاَّ وخلق الله له دواء ـ إلاَّ الموت ـ وأمر بطلب الدواء والعلاج. ونحن بحاجة إلى أطباء نفسيين لدراسة هذه الحالات وما يقاربها للوصول إلى العلاج.. ولقد كان حجة الإسلام الغزالي مهتماً في زمانه بهذا البحث وعقد له باباً موسعاً في كتابه الإحياء.. ولكن لم يأت بعده من يتابع البحث في عالمنا الإسلامي.. إلى أن بدأ يحظى الآن ببعض الاهتمام.

٢ ـ ﴿ . . . أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ. . . ﴾؟:

وهو سؤال للتعجب من حالهم: أيشكون في القرآن والنبي بعد أن أعلنوا إيمانهم؟! لأن نفس المؤمن تجد اللذة والسعادة في طاعة أمر الله.

٣ ـ ﴿ . . . أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ. . . ﴾؟:

وهو استنكار عليهم أن يظنوا أن الله يظلمهم فإن حكم الله هو الحكم الوحيد الذي لا ينحرف ولا يجور ولا يميل مع الهوى. فالله خالق الجميع وقد أنزل الإسلام ليسعد به الجميع. وأنبياء الله هم أصفياؤه من الخلق ومع ذلك لم يحابهم الله.. بل كانوا هم أول من يؤدي التكاليف وأول من يحاسب على التقصير.. بل كلفوا بأكثر مما كلف به الناس.

﴿ . . . بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ ﴾ :

فالعلة فيهم. . هم مرضى القلوب. . وهم الذين لا يقبلون بالعدل. . وإنما يريدون أن يستأثروا بكل شيء. . والظالمون هم (المغضوب عليهم) لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه. بينما مرض (الضالين) الجهل.

وفي المقابل يعرض موقف المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾ :

وقد أخذ رسول الله ﷺ البيعة على الناس بالسمع والطاعة في المنشط والمكره «وعلى أثرة علينا». . وقد وعدوا على الطاعة بالفلاح وهو النجاح بالإطلاق دون تحديد بدنيا أو آخرة. .

ولقد كان الصحابة نموذجاً رائعاً لهذه الطاعة. . انظر إلى استجابتهم عند تحريم الخمر وتحويل القبلة وفرض الحجاب على المؤمنات. . انظر إليهم حين دخل القرآن بيوتهم ودخل في تفاصيل حياتهم الزوجية والشخصية. .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ :

تحدد الآية صفات ثلاثة: ١ ــ طاعة الله والرسول. ٢ ــ خشية الله. ٣ ــ التقوى. وهي التعبير العملي عن خشية الله. . فهي فعل الواجبات وترك المحرمات طلباً لرضى الله. من اتصف بهذه الصفات الثلاثة حصل على النتيجة: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ وهي تأكيد لما قبلها ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾. والمؤمنون موعودون بسعادة الدنيا والآخرة. والسعادة والفوز لا يعنيان الجانب المادي فقط.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ... ﴾:

تعود الآيات إلى المنافقين.. وبضاعتهم هي الكلام وحلف الأيمان.. فقد أقسموا بأشد ما يستطيعون من الأيمان: إن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجنَّ.. فيرد عليهم:

﴿... قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ... ﴾:

والآية تحتمل تفسيرين:

١ ـ لا تقسموا فإن طاعتكم معروفة.. هي كلام بلا عمل. وصورة بلا روح.

٢ ـ أو أن المعنى من «طاعة معروفة»: إن طريق الطاعة معروفة لمن يريد سلوكها...

﴿... إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾::

فلن ينفعكم هذا القسم الذي قد يخدع بعض الناس ولكنه لا ينفع مع رب الناس المطلع على الأعمال والقلوب.. والتعبير في الآية ﴿ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ يضع النوايا ضمن الأعمال.. ولا ريب في ذلك فلكل عضو عمله.. والنوايا من أعمال القلوب. وهي داخلة في الحساب ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾.

ثم يتوجه إليهم آمراً إياهم بالطاعة الحقيقية الفعلية:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ... ﴾:

إن أعرضتم فإنما النبي مكلف بالبلاغ.. ويسأل أمام ربه عن تبليغ الرسالة.. وقد بلغكم.

﴿... وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ...﴾:

وهو قبول الرسالة والقيام بمقتضاها.. وطاعة الرسول. فلقد كانت لكم عقول.. وعرضت عليكم الدعوة فأعلنتم قبولها وبايعتم على ذلك. فعليكم الالتزام.

﴿... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا...﴾:

في الآية أمور هامة نقف عندها:

١ ــ إن الطاعة هي الطريق للوصول إلى الهداية بينما الناس يفهمون الأمر على العكس تماماً.. فإذا ذكروا بضرورة الطاعة قالوا: (الله يهدينا)..!!

٢ ــ في الآية ربط بين عمل الله وعمل العبد.. فإن الهداية من الله تأتي كثمرة وعطية مقابل طاعة الإنسان للأوامر في القرآن والسنة.

٣ ــ وفي الآية تأكيد على طاعة الرسول ﷺ. فلا يجوز لأحد أن يقول أن القرآن وحده يكفي ولا بد من السنة معه.. ولكن هل كل ما قاله الرسول ﷺ داخل فيما يجب طاعته..؟! هنا على المسلم أن يحرك عقله ويميز بين أقواله ﷺ التي لا يجوز الخروج عنها.. مثل التي تحدثت عن تفاصيل العبادات.. وبين أقواله التي تعتبر حلولاً تناسب عصره ونابعة من اجتهاده ﷺ. فقد قال لنا: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». ولقد كان الصحابة يتصفون بهذا التمييز.. ولهذا فقد كان عمر رضي الله عنه يعترض أحياناً ويناقش النبي ﷺ في الأمر. واعترض الحباب بن المنذر على الموضع الذي نزل فيه رسول الله ﷺ يوم بدر.. وحتى حين أمرهم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلينَّ العصر إلاَّ في بني قريظة»، فمنهم من صلى وأسرع ومنهم من لم يفعل.. ومقاصد الشريعة هي المرجع في هذا

الأمر.. وعلى العقل المسلم أن يراقب ما تقتضيه مصالح الأمة ويراعي ما أضافته الكشوف المستمرة في آيات الآفاق والأنفس، مثلاً: في مجال الطب النبوي يجب أن يدقق في الأحاديث ومدى مطابقتها لما أثبت العلم.. فإن تبين التعارض بين الأمرين ينظر إلى الوصفة الطبية التي قدمها الحديث على أنها اجتهاد من النبي ﷺ وقد تكون البيئة في ذلك الزمان قد تعارفت عليه.. وهذا شبيه (بالطب الشعبي) الذي توجد آثاره في كل أمة. ومن الواضح أن الأمر محتاج إلى النظر الموضوعي بعيداً عن الظن والهوى.

﴿... وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾:

وقد أدى ما عليه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة.. وأما أنتم فستسألون عن ما حملتم من تكاليف.

٦ ــ وعد الاستخلاف:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾:

فانظروا أيها المنافقون.. كم حرمتم أنفسكم.. فقد وُعِدَ المؤمنون بخير الدنيا والآخرة.. كم كنتم حريصين على زعامة الدنيا.. ولكنكم أخطأتم الطريق فلم تطلبوها من مالكها المتصرف فيها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1].

وتوضح الآيات هنا شروط المرشحين للاستخلاف.. فالأمر ليس مجرد ادعاء الإيمان باللسان.

---

(1) سورة النساء: الآية ١٣٤.

وأول ما ينبغي أن نلاحظ أن الوعد يأتي للجماعة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن نتائج الأعمال في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية.. فهي سنة اجتماعية. وإدراك هذا الأمر يجنب المؤمن كثيراً من اليأس والحيرة وهو يواجه جحود الناس وفتنة الدنيا.. ومع ذلك فإن الجماعة تبدأ من أفراد يجاهدون ويتواصون بالحق والصبر.. إلى أن يتشكل منهم العدد الكافي لسلامة الأمة.

والآيات تتضمن هنا أربعة نقاط:

١ ــ الاستخلاف في الأرض.

٢ ــ شرط الاستخلاف.

٣ ــ الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة.

٤ ــ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض.

١ ــ الاستخلاف في الأرض:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾:

وعد الله الجماعة المؤمنة التي جمعت الإيمان والعمل الصالح أن يحقق لها ثلاثة أمور:

١ ــ ﴿... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾:

يحكمون في الأرض ويقومون بعمارتها والإصلاح فيها وهو دور الخلافة الذي خلق له الإنسان ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وتأتي بمعنى البقاء والقيام مقام من كان قبلهم ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾[2]. وكأن معناها أن الله يجعلهم نواباً عنه في حكم الأرض وإدارة شؤونها ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٩.

﴿جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] .

٢ ـ ﴿... وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ...﴾: وهو وعد بجعل السلام عزيزاً في الأرض.

٣ ـ ﴿... وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...﴾: فينتشر الأمن والسلام وتنتهي العداوة ضدهم.

فالاستخلاف الموعود أكبر وأعم من الحصول على مكاسب الدنيا وسلطتها لأن ذلك قد يعطىٰ للكافرين بحسب علمهم بسنن الدنيا ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾[2] . إنه وعد للمؤمنين بوراثة الأرض وأن يكونوا أئمة للناس وقادة لهم إلى كل خير، يسخرون طاقات الكون لما فيه خير الإنسان وازدهار حياته وفلاحه في آخرته. وليس هذا غريباً بل إنه سنة في الحياة:

﴿... كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾:

فلقد حدث هذا في التاريخ.. انظروا في تاريخ الأمم.. ألا ترون كيف أن الله أعطى هذا للمؤمنين في الماضي كلما حققوا شروط الاستخلاف؟

فاستخلاف المؤمنين هو سنة للحياة في الأرض.. إن لم يتحقق فعلينا أن نراجع أنفسنا: هل حققنا الشروط كلها؟

ولقد تحقق ذلك في الماضي. فلقد كان النبي وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وهم خائفون لا يؤمرون بقتال. حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة بالقتال.. فكانوا بها خائفين يمسون في

---

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٨.

السلاح ويصبحون به.. فصبروا على ذلك ما شاء الله.. فسأل أحدهم رسول الله ﷺ: (أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟) فقال ﷺ: «لن تصبروا إلاَّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة» وأنزل الله هذه الآية وتحقق لهم وعد الله فأمنوا ووضعوا السلاح. وكانوا كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشُّرَط وغيروا فغير الله بهم[١].

لقد وُعِدَ المؤمنون بتمكين الدين وإعطائه السلطان على القلوب وفي تصريف أمور الحياة.. وبأن يبد لهم بالخوف أمناً.. فكيف يتم ذلك؟

إن الخوف ملازم للظلم.. فلا ينتهي الخوف إلاَّ بالقضاء على الظلم.. ولا ينتهي الظلم إلاَّ بتحرير الإنسان من الاستضعاف.. لأن المستضعف يؤمن بالقوة ويخضع لها.. ويتمنى أن يصل إلى مركز المستكبر حتى يمارس الظلم والاستعلاء في الأرض. وحين يتحرر الإنسان من الخضوع للقوة فلا يخضع إلا لله.. عندها يبدأ سلطان المستكبر بالأفول.. ويتمرد الناس على ظلمه فلا يطبقون إلاَّ أمر الله.. وهي الخطة المكية التي حررت الإنسان ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾..

إنه الطريق المؤدي إلى الحرية والعدل والأمن والسلام.. طريق كلها معاناة وجهاد.. ولكن لا بد منها لتمحيص نفوس المؤمنين ـ قبل غيرهم ـ من سموم القوة وفتنة السلطة.. وذلك ما أشار إليه موسى عندما سأله قومه: ما الفائدة؟ ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾ ما زلنا نتحمل عذاب فرعون ولم تخلصنا منه؟ فقال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ

(١) وذكره ابن كثير عن أبي العالية في تفسير هذه الآية.

﴿عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[١]. أي أن هذا يعلمكم أن لا تستكبروا عندما تصلون إلى مراكز القوة.

إن هذا الوعد من الله يحمل أملاً كبيراً للبشرية في أن يتمكن المؤمنون من تحقيق العدل والأمن والسلام في الأرض. ولكن ما أبعد الشقة بين الواقع المخزي الذي نحن فيه وبين هذا الأمل.. ومع ذلك فإن العمل المخلص الواعي يقرب البعيد ولو خطوات.. وإن وجود القلة المؤمنة العاملة ليبشر ببداية هذا الخير. ورسول الله ﷺ يبشرنا بانتشار الإسلام حتى يعم الأرض كلها بأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»[٢] .. إن المستقبل للإسلام فعلينا أن نضع هذا الأمل نصب أعيننا ولا تحتقروا من العمل المفيد شيئاً..

٢ ـ شرط الاستخلاف:

﴿... يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾:

في الآية شرطان:

١ ـ **عبادة الله**: وقد سبق أن عرفنا العبادة بأنها الطاعة.. وأنها تشمل كل عمل يراد به وجه الله. والعبادة هي إعطاء الاهتمام الأكبر لأمر من الأمور. وقد تحدث توماس كارليل في كتابه: فلسفة الملابس عن عشيرة المتأنقين فقال عنهم أن لهم معابدهم وهي دور الأزياء ولهم صلواتهم في الليالي الطويلة التي يقضونها ساهرين في سبيل الأناقة. وقد

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

(٢) ذكره ابن كثير وقال عنه ثبت في الصحيح.

تحدث رسول الله ﷺ عن بعض أنواع العبادة لغير الله «تعس عبد الدينار... تعس عبد الخميصة» (أي الثوب).

فالمعبود: هو الشيء الذي تفكر فيه أكثر من أي شيء آخر وتبذل من أجله جل وقتك وجهدك ومالك..

٢ ـ **عدم الشرك به**: أن لا تشرك بجوانب التوحيد الثلاثة: لا خالق ولا حاكم ولا مجيب للدعاء إلاّ الله. والشرك هو الفهم الخاطىء للأمور. فبدلاً من أن تكون علاقة الإنسان مع الكون هي التسخير.. تصبح عبودية.. وهذا ما يؤدي إلى التخلف. وفكرة التوحيد كبيرة وعظيمة في آثارها النفسية والحضارية.. فهي مصدر الكرامة والتحرر الإنساني.. وهي المنطلق في التسخير.. ـ كما تحدث توينبي عنها على أنها مهدت الطريق للاكتشاف والتقدم التكنولوجي ـ وبهذا نجد أن توينبي قدم شهادته على أن التوحيد هو شرط للاستخلاف.

﴿... وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

فالآية تحذر من الغفلة والتهاون في مراقبة شروط الاستخلاف.. فإن تعطلت الشروط تدهورت الحضارة.. ودخلت في حتمية الدورة. وكل الحضارات بدأت بالانهيار عندما أصبح الإنسان عبداً لهواه وشهواته. وبذلك يحررنا القرآن من الوقوع في حتيمة الدورة الحضارية فالأمر مرتبط بشروط.. والشروط ضمن إرادة الإنسان واختياره.. وبإمكانه أن يحرص عليها.

٣ ـ **الأمر بالصلاة والزكاة والطاعة**:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾:

وكأن الله سبحانه يفصل لنا هنا شروط الاستخلاف السابقة. فتوحيد

العبادة لله يتضمن إقامة لشبكة علاقات سليمة مع الله والناس والكون.

فإقامة الصلاة: تحقيق لعلاقة العبودية مع الله.

وإيتاء الزكاة: تحقيق لعلاقة العدل والإحسان مع الناس.

وطاعة الرسول: تشمل تنفيذ شريعته واتباع سنته التي هي في جوهرها كشف للسنن وأداء للأسباب للوصول إلى التسخير. ومن الواضح أن رسول الله ﷺ لم يبن المجتمع المسلم بالخوارق وإنما بالسنن والقيام بالأسباب.. ويعقب على ذلك:

﴿... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾: في الدنيا والآخرة.. إن القيام بهذه الأوامر الثلاثة يحقق لكم الرحمة في الدنيا والآخرة.. فإقامة الصلاة فيها رحمة وسكينة للقلب المؤمن وهو يخوض معمعة الحياة. وإيتاء الزكاة يحقق الرحمة لقلب المعطي.. إذ يرتاح من الحرص والشح والأثرة.. وهي أمراض للقلب مؤلمة. ويحقق الرحمة لحياته إذ يحميه من حقد الناس وحسدهم..

ويحقق الرحمة لجماعة المؤمنين فهم متحابون متكاملون لا يعرفون الحقد والصراع الطبقي. وطاعة الرسول رحمة كبرى.. فقد كان ﷺ كما وصفه ربه سبحانه وتعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(١). ورسول الله ما أمركم وما دعاكم إلا لما يحييكم.. يقول ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها. وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي»(٢).

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) رواه مسلم.

وكان ﷺ ما خير بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. رحمة بأتباعه.

٤ ـ لا تحسبن الكفار معجزين:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾:

إن الآيات تتبع مسارب النفوس وما يعرض لها من زلزلة وهي تستقبل آيات الكتاب وتعارك فتن الواقع.. ينظر المؤمنون الموعودون بالاستخلاف في الأرض.. إلى عالم الواقع فيرون استكبار الكافرين وتسلطهم في الأرض.. وسبقهم إلى العلوم والتسخير.. فتمتلىء القلوب بالمرارة. فتأتي الآيات لتمسح القلوب وتصحح الفهم وتذكر بالسنن.. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولو ملأوا الأرض بقوتهم.. فلا تظنوا أن تركهم في الأرض يتسلطون عن عجز.. ولا ترتابوا في وعد الله لعباده.. وإنما للدنيا سنن من قام بها أمسك بزمامها.. ولو قام المسلمون بدين الله حق القيام لكشفوا السنن وسخَّروا وحققوا وعد الله. ومع ذلك فإن الكافرين يفسدون في جوانب أخلاقية واجتماعية وفسادهم هذا لا بد أن تكون له عواقبه في الدنيا ولكنها تحتاج إلى وقت كالأمراض تحتاج إلى فترة حضانة حتى تظهر.. فإن تدارك العلماء جوانب الفساد وعالجوها استطاعوا أن يمدوا عمر الأمة.. وإلاَّ فإن الانهيار آتٍ ولو بعد حين.. وقد يموت هؤلاء المفسدون قبل أن ينالوا جزاءهم الدنيوي فتقع العواقب الوخيمة على من يأتي بعدهم.. ولهذا لا تعتبر الدنيا دار جزاء وإنما دار ابتلاء.. ولهذا أشارت الآية إلى حتمية الجزاء الفردي في الآخرة:

﴿. . . وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾:

فلئن أفلتوا في الدنيا فلن يفلتوا في الآخرة. وكلمة «لا تحسبنَّ» تتكر

في القرآن لأن النقص في العلم يعرض للظن والحسبان. وكلما جهل الإنسان التاريخ ولم يستحضره وقع في ضيق النظر، فهو يستعجل.. يسرع في اليأس والفرح.. فلا تغتر بالنتائج العاجلة.. وانظر في التاريخ.. كيف كانت عاقبة المكذبين.. والمفسدين انظر كيف وقع جالوت وهو في أوج جبروته أمام مقلاع داود..؟!

إن النظر في التاريخ يحرر من الظن والحسبان ويعطيك رسوخ العلم.

ولنحذر فإن ظن العجز بالله تعالى كفر.. فإياك أن تظن أنهم يعجزون الله.. وأما أن تحمل العبارة على أنهم يعجزون المؤمنين عن إيقاف ظلمهم.. يلهث المؤمنون وراءهم فلا يدركونهم.. ولا يستطيعون إيقاف تيارهم..!! فإن هذا ظن وحسبان.. ومنشؤه الجهل بسنن الله.. وشروط الاستخلاف.. ومن المؤسف أننا كثيراً ما نرد فشلنا وعجزنا إلى إرادة الله سبحانه وتعالى.. ولا نفكر في مراجعة أعمالنا وأفكارنا.. وفساد النتائج ناتج عن فساد الأعمال وهي ناتجة عن فساد الأفكار.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

• • •

٥ ـ احتياطات أمن (قسم ثاني)

كانت الفاصلة بين الاحتياطات الأولى والثانية تتحدث عن العقيدة وهي التي تنتج السلوك. وقد كانت الآيات تنتقل بنا من ميدان إلى ميدان في تناغم جميل.. من الكون إلى الحياة الاجتماعية إلى المسالك الفكرية والنفسية.. والآن تنتقل بنا إلى أمور تفصيلية يومية في حياة الأسرة. فهي سورة النور.. وهذه الأحكام نور للحياة.. منْ فقدها تاه في الظلمات واحتار.. كمن فقد نور البصر.. كيف يتحرك..؟

والآيات التالية تتمم الاحتياطات التي من شأنها أن ترفع المجتمع وتصونه من الفواحش وتجعله في حصن منيع من الآداب القرآنية. ويتضمن هذا القسم أربعة مواضيع:

١ ـ الاستئذان الخاص بالبيوت.

٢ ـ القواعد من النساء.

٣ ـ الذين يجوز تناول الطعام عندهم.

٤ ـ آداب اجتماعية.

١ ـ الاستئذان الخاص بالبيوت:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ... ﴾

(إذا سمعت النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأعره سمعك فإنه إما خير يأمرك به أو شر ينهاك عنه). هكذا أوصانا ابن مسعود رضي الله عنه.

وتنص الآية على صنفين: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي لم يبلغوا سن الرشد. وكما ذكرنا سابقاً إن هذا يختلف من بلد لآخر ومن فرد لآخر. وهو غالباً ما بين العاشرة والخامسة عشر.

هذا الاستئذان كأنه يوحي لنا بتحديد أوقات للراحة لتجديد النشاط. والإنسان محتاج إلى أوقات يخلو فيها إلى نفسه. والقرآن يشرع الاستئذان داخل البيوت صيانة لحق كل فرد في ذلك. ويحدد له ثلاثة أوقات:

﴿... ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ...﴾:

ويسمي هذه الأوقات عورات ﴿... ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ...﴾. والعورة هي الخلل في ثغر البلاد يخاف فيه. وهي كل شيء يحرص الإنسان على ستره ويستحي من انكشافه.

ففي هذه الأوقات قد تكونون في حالة لا تسمح بدخول الخدم والصغار عليكم.. فعليكم أن تؤدبوهم على الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة لأنها مظنة لانكشاف العورة.

﴿... لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ...﴾:

فلا حرج من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات. وهكذا نجد الآية تجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورة وإزالة الحرج والمشقة.. فالأصل في الشريعة اليسر والتسهيل وعدم الإعنات.. ولكن ترك الاستئذان وانكشاف العورات يحول اليسر إلى عسر حين نراقب العواقب.

﴿... طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾: فمن الصعب ضبط حركة الأطفال والخدم في كل الأوقات.

﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾: فهو بيان وتعليم من العليم الحكيم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟...﴾: في جميع الأوقات.

﴿... كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾: وإن رؤية الأطفال للكبار من قبلهم يستأذنون أمر له أكبر الأهمية في التأثير التربوي على سلوكهم وهو أهم من التلقين لأن الطفل يتشرب سلوكه من تحركات الكبار.

﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩﴾: انظر كيف يكرر التعقيب مرتين..!! فلو توفر لدينا العلم والحكمة لفهمنا الأمر بشكل أعمق. وعلى قدر علمي القليل أقول: **من نتائج هذا التعليم**:

١ ـ تنمية الإرادة عند الأطفال فيبدأون بتعلم ضبط النفس وفهم معنى الحدود في الحياة.

٢ ـ سد المنافذ التي يمكن أن تؤدي إلى الانحراف. فقد أصبح معروفاً مدى خطورة السنين الأولى من حياة الطفل وما لها من الأثر في تكوين شخصيته وإعطائه القيم والاتجاه السلوكي. فحماية الطفل منذ أن يدرج ماشياً من أن تقع عينه على العورات المكشوفة أمر هام جداً. وعلى الأم أن تنتبه إلى أهمية الاحتشام أمام أولادها في سائر الأوقات. وإن التزام هذه الأوامر يجنب الناشئين مواضع الزلل ويحميهم من العقوبات.

٣ ـ في ذلك تنظيم لوقت المؤمن وحياته. فهناك أوقات للراحة وتبديل الملابس وعلى الكبار أن ينضبطوا في غير هذه الأوقات الثلاثة.

٤ ــ وفي هذا الانضباط والسيطرة على الغرائز يصبح الإنسان في أحسن تقويم.

٥ ــ غرس الآداب القرآنية في الطفل منذ الصغر. وهذا ما يعطيه هويته الإسلامية ويعلمه التفاعل مع القرآن والخضوع لحكمه.

٦ ــ هذه الأمور وإن كانت بسيطة لكنها ذات أثر بالغ:

١ ــ وذلك يجعل أعمال الإنسان صادرة عن وعي وضمن نطاق الإرادة. وتجعل الإنسان يراقب أعماله.

٢ ــ تفيد في توحيد عادات المجتمع مما يساعد على جعله كالبنيان المرصوص. بينما نعاني من التفكك الناتج عن اختلاف العادات والسلوك الاجتماعي.

٢ ــ القواعد من النساء:

سبق أن جاء الأمر بضرب الخمار وإخفاء الزينة في القسم الأول من الاحتياطات. وهنا يأتي استثناء لحالة خاصة ــ أو رخصة ــ.

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ . . . ﴾: والقواعد: هنَّ اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد.

﴿ . . . ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا . . . ﴾: أي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال، وفرغت أجسامهن من الفتنة والإثارة ــ وهو تعريف صاحب الظلال ــ أما المودودي فيعبر عن ذلك بعبارة أخرى: (اللواتي لم يبق لهن مطمع في الزواج ولا يرغب الرجال فيهن). فالآية تحدد شروط هذه الحالة:

١ ـ بلوغ سن اليأس.

٢ ـ عدم الرغبة في الزواج.

٣ ـ غير متبرجات بزينة.

وعندها يرخص القرآن بشيء من التسامح في الحجاب معها.

﴿... فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ...﴾:

قال المفسرون أن المقصود من الثياب هنا الجلابيب.. ولا أجد مبرراً لهذا التحديد. ومن الواضح أنها تعني الرخصة بوضع بعض الثياب وليس كلها.. فقد ينكشف جزء من ذراعها وقد ينزاح جزء من خمارها وقد لا تلتف بجلبابها إن زارها بعض معارفها أو جيرانها.. بشرط:

﴿... غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ...﴾: أن لا تقصد بذلك التجمل والتزين.. أو لا تتزين عند خروجها.. والرغبة في إظهار الزينة قد لا تكون مقترنة بالرغبة في الرجال.

﴿... وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ...﴾: بعد بيان التساهل أشار إلى أن الالتزام والعفة خير لهن وعلى هذا المعنى يكون قد أطلق الاستعفاف على التزام الحجاب. لما بين الجوهر والشكل من صلة. وفي الآية رأي آخر: وهو أن جوهر العفة وحقيقتها النفسية هو المقصود. فالاستعفاف هنا للعجوز لا علاقة له بوضع الثياب أو المبالغة في التستر.. بل إن مبالغة العجوز في التستر يبدو مستهجناً وغير سوي. هذا ما فهمته من الآية حتى الآن، والله أعلم.

﴿... وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾: يسمع ويعلم ما يدور في النفوس..

بعض الحكمة من هذا الحكم:

١ ـ التسهيل ورفع الحرج في الحجاب عند ذهاب الفتنة. إذ أن الغاية الأولى من الحجاب هو دفع الفساد.

٢ ـ المرأة في هذا السن تكون أقل نشاطاً وأقل انتباهاً والتساهل مناسب لحالها.

٣ ـ التوجيه إلى الاستعفاف هام هنا حتى لا نتوسع في التساهل.

٤ ـ كما أن التوجيه إلى جوهر الأمر هنا ـ العفة ـ يحرر النفس من التشنج والتعنت.

٣ ـ الذين يجوز تناول الطعام عندهم:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ . . . ﴾:

قبل أن نتناول شرح الآية علينا أن ننتبه إلى أمر هام: وهو الانقلاب الذي حدث في عقلية العرب حين آمنوا بالقرآن فأصبح إحساسهم مرهفاً وصاروا يتحرجون من كثير من الأعمال. فلما نزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾. قال المسلمون: إن الله نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد إلاّ بدعوة. وكان هذا التحرج يدفعهم إلى التساؤل الكثير في أمور شتى حتى قال الله لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[١]. وبين لهم الرسول ﷺ أن كثرة السؤال تؤدي إلى التعقيد في التكليف أحياناً ـ كما حدث في بقرة بني إسرائيل ـ وإن كان السؤال في

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٩.

بعض الأحيان ضرورياً ومأموراً به وهذا يحتاج إلى فهم وحكمة لمعرفة متى يسأل. . والحكمة هي وضع الأمر في مكانه.

إن هذا التقديم يلقي الضوء على الموضوع الذي تتحدث عنه الآية. وهي تشتمل على أمرين:

١ ــ رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الأكل في بيوت المسلمين.

٢ ــ رفع الحرج عن سائر الناس في الأكل من بيوت المذكورين في الآية.

أما أصحاب الأعذار: الأعمى والأعرج والمريض. فإن ضعفهم يثبت لهم الحق على المجتمع كله. فلهم أن يأكلوا عند الناس دون حرج. وعلى المؤمنين أن يدركوا أن الله جعل لهم حقاً في طعامهم.

﴿. . . وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ. . . ﴾:

وهل يحتاج المرء إلى إذن في الأكل من بيته. .؟! ليس هذا هو القصد هنا. . وإنما ليؤكد لهم أن أكلهم من بيوت المذكورين في الآية هو مثل أكلهم من بيوتهم. والله أعلم.

﴿. . . مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ. . . ﴾:

نجد الآية قد ذكرت الأقارب بالتسلسل الأقرب فالأقرب. . ولكن لم تذكر بيوت الأزواج والأبناء؟! إن بيوت الأزواج والأبناء داخلة ضمن (بيوتكم). فأنت ومالك لأبيك.

﴿... أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ...﴾:

فمن أعطاك مفتاح بيته راضياً بدخولك وتصرفك داخل بيته يجوز لك أن تأكل مما عنده.. وفي ذلك دفع للتلف فقد يفسد الطعام حين يتركه أصحاب البيت لسفر..

﴿... أَوْ صَدِيقِكُمْ...﴾:

وهنا يلحق الصداقة بصلة القرابة توثيقاً لعرى المجتمع. والمراد بهم الأصدقاء الحميمين الذين لا كلفة بينهم. فالأكل عند هؤلاء الذين نصت عليهم الآية لا يحتاج إلى استئذان من صاحب البيت. لأن الله أعطاهم الإذن. ولا يخفى ما للمؤاكلة من أثر في تقوية الروابط بين الناس.

﴿... لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا...﴾: أفراداً أو مجتمعين. ويذكر في هذا المجال بآداب دخول البيوت:

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً...﴾:

وقد جعل «بيوتاً» نكرة ليعمم الحكم.. فلا بد من السلام عند دخول أي بيت ولو كان خالياً.. والتعبير لطيف يصور قوة الرابطة بين المؤمنين «على أنفسكم» فالمؤمن وإخوانه نفس واحدة وأما البيت الخالي فيقول الداخل إليه: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (الملائكة)، والله أعلم.

﴿... تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً...﴾:

هكذا توصف تحية الإسلام ـ السلام عليكم ـ بأنها من عند الله مباركة في آثارها طيبة في معناها.. ولكننا قلما نقف عند معاني هذه التحية.. كشأننا مع كثير من الآداب الإسلامية التي تصبح عادة.. يقول

أحد المسلمين أنه عندما كان يتلقى العلم في بلاد أجنبية طلب منه أن يترجم لهم تحية المسلمين.. عندها انتبه إلى بعض معانيها وشعر بصعوبة في ترجمتها لما تحتويه من معاني سامية. فمن معانيها:

١ ــ إلقاء التحية.

٢ ــ الأمن والاطمئنان: أي أنت في أمن من يدي ولساني فكأنك تعطيه عهداً.. ولذلك كان رسول الله ﷺ يفتتح رسائله إلى الملوك بـ: السلام على من اتبع الهدى.

٣ ــ تحمل معنى الدعاء بالأمن والهناء لمن تقابل.

٤ ــ والسلام اسم من أسماء الله تعالى وأحد معانيه: الكامل المنزه عن النقص والعيب. فالتحية تحمل معنى: ليتغشاكم الله برحمته ويرعاكم. فهل يمكن أن تقارن هذه التحية التي هي من عند الله والتي تربط العبد بربه.. بغيرها من أنواع التحية.

﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

فهي رحمة بكم أن يبين لكم الأحكام والآداب التي فيها صلاح حياتكم.. فاعقلوا ذلك.

وفي الآية نداء للمؤمنين وتنبيه لهم كي يحركوا عقولهم وينتفعوا بها. كما أنها إشارة هامة إلى أن هذه الأحكام تحتاج إلى عقول مدركة حكيمة تتصرف بذوق ولباقة أمام هذا الحكم. فالتعامل مع الناس يحتاج إلى استنفار الذكاء لمعرفة طبائع كل منهم وما يناسبه. رغم الأخوة بين المؤمنين جميعاً.. وأحسن شيء في ذلك الاعتدال فلا تتصرف مع إخوانك كأنهم أغراب.. ولا تعتبر بيوتهم مثل بيتك تماماً فتنطلق على سجيتك.. وكذلك

في إكرام الضيف لا التكلف محمود ولا التقتير.. إنها أحكام وآداب تحتاج إلى ذوق وعقل وحكمة كي توضع في مكانها المناسب. فالتعامل مع الناس من أصعب الأمور والمحافظة على سلامة الروابط الأخوية من الأمور الهامة في الدين.

٤ ـ آداب اجتماعية:

تنتقل بنا الآيات من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة وقائدها. وتتضمن الآيات:

١ ـ تعريفاً للمؤمن.

٢ ـ تمييزاً للرسول.

٣ ـ تنبيهاً إلى الطرق الخداعية لتبرير التخلف.

٤ ـ رقابة الله وعلمه وتذكر يوم الرجوع إليه.

سبب النزول: روي في السيرة عند غزوة الأحزاب أن رسول الله ﷺ أمر بضرب الخندق وعمل فيه الرسول ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل فيه المسلمون وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون بغير إذن. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته حاجة لا بد منها يذكر ذلك للنبي ﷺ ويستأذنه.. فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير فأنزل الله في المؤمنين والمنافقين هذه الآيات. والآية عامة تؤدب الجماعة المسلمة مع قائدها.

١ ـ تعريف للمؤمن:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟...﴾:

يذكر للمؤمنين هنا صفتين:

١ ــ آمنوا بالله ورسوله. والإيمان الحقيقي لا يتم إلاَّ بتحكيم الله ورسوله في أمور الحياة ثم الرضى بحكمهما. كما مر معنا قبل قليل في الحديث عن المنافقين.

٢ ــ ﴿. . . وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ. . .﴾:

والأمر الجامع هو الأمر الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال وفي الآية نقاط هامة ينبغي تأملها:

١ ــ لفت النظر إلى أهمية العمل الجماعي وأهمية الثبات فيه وعدم الانسحاب. وفي هذا العصر بالذات بدأ يظهر أكثر من السابق ضرورة وجود الأعمال الجماعية. . (في الأبحاث والتأليف مثلاً. . .) وبهذا نجد الإسلام قد خطا بالإنسان البدوي خطوات في التنظيم الاجتماعي وإدراك أهمية الأمر الجامع.

٢ ــ المسلم ينبغي له أن يستأذن قائده وموجهه قبل الانصراف من عمل أو مجلس عقد لأمر جامع.

﴿. . . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ. . .﴾:

وهكذا يؤكد مرة أخرى على أهمية الموضوع بجعله دليلاً على الإيمان وصفة ملازمة للمؤمن.

٣ ــ ترك الله للرسول ــ أو القائد من بعده ــ الصلاحية في السماح أو عدمه:

﴿. . . فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ. . .﴾:

فالقائد هو المسؤول وهو الذي يستطيع تقدير مصلحة العمل الجماعي. . فإن رأى أن الحاجة الاجتماعية أشد وأهم من حاجتكم الفردية

فله أن لا يأذن وعليكم الطاعة دون استياء ولتقريب الموضوع يمكن أن نذكر مثالاً: طبيب يدير مركزاً صحياً فيه عشر ممرضات لكل واحدة مهمة معينة. مثلاً إحداهم لتسجيل البيانات.. وثانية تشرف على توزيع الأدوية.. وثالثة تراقب توزيع الأدوية في مواعيدها... ورابعة مسؤولة عن تعقيم الأجهزة...

فإن أرادت إحداهن الانصراف فالطبيب هو الذي يستطيع تقدير الموقف أكثر.. هل غيابها يسبب خللاً بالأمر الجامع أم يمكن أن ينوب عنها غيرها.. وهو الذي يحدد زمن غيابها. ولنا أن نتصور مدى الخلل الذي يحدث لو ترك لهن أن يذهبن دون استئذان.

٤ ــ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾: سواء أذنت لهم أم لم تأذن. وفي ذلك تنبيه إلى أن طلب الإذن ذنب يحتاج صاحبه إلى الاستغفار. كذلك فإن الله ينبه الأفراد إلى واجبهم ــ الاستئذان ــ وينبه القائد إلى واجبه ــ أن يستغفر لهم ويرحمهم ــ.

إن القرآن بتوجيهاته هذه كان يحول البدوي الفوضوي إلى فرد منضبط في مجتمع متحضر.. وهو مقياس لتحضر الإنسان ولا بد أن نستوحي من ذلك التنسيق للأسرة الكبيرة.. أن أفراد الأسرة الصغيرة عليهم أن يراعوا شيئاً من ذلك عند الخروج من البيت فيستأذنوا في الخروج رب الأسرة. ويخبروا من في البيت عن مكان وجودهم ومدة غيابهم.. فقد يطرأ طارىء يستدعي وجودهم ومشاركتهم. وقد سبق أن رأينا ما حصل عندما خرجت عائشة تلتمس عقدها دون أن تخبر أحداً.

٢ ــ تمييز الرسول:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾:

من معاني الآية:

١ ــ لا تجعلوا أمر الرسول كأمر غيره من الناس لأن طاعة الرسول صفة الإيمان.. وشرط لتحقق الإيمان.. فكيف يفضل المسلم أمر الناس على أمر الرسول؟!.

٢ ــ لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه.. وإنما يا رسول الله. وفرق كبير بين أن يكون هو متواضعاً.. وأن ينسوا هم أنه مربيهم ونبيهم. ومن الأدب الإسلامي أن ينادىٰ الإنسان بأحب الأسماء إليه. وفي موضوع توقير المربي تجد الناس بين إفراط وتفريط.. فإما أناس يقولون: (ليس للمريد أن يقول لشيخه: لِمَ) ويقولون: (كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي المغسل) أو أناس فقدوا كل احترام وتوقير يقاطعون أستاذهم في كلامه.. ويردون بدلاً عنه حين يسأل.. وكثير من الشباب حين يتحرر من التقليد يتحول إلى الاستخفاف والتجريح.. ونحن دائماً نفقد حالة الوسط.. وننسى أننا الأمة الوسط التي يجب أن تحرص على الاعتدال في كل شيء كي تصل إلى النضج والتوازن.

٣ ــ لا تعتقدوا أن دعاء الرسول كدعاء غيره.. فاحذروا مخالفته وأسرعوا إلى طاعته حتى تنالوا منه طيب الدعاء..

٣ ــ تحذير من الخداع لتبرير التخلف:

﴿... قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا...﴾:

ينسحبون واحداً إثر واحد من مواقف الخوف والجد يلوذ بعضهم ببعض ويتدارى الواحد بالآخر. وفي عالمنا يلجأ كثير من المسلمين إلى الحيل الشرعية ليبرروا تملصهم وتخلفهم عن الالتزام بأمر الله فليحذروا عاقبة المخالفة والتخاذل والانسحاب، فلئن خدعوا الناس فإن الله لا يخدع ولا مناص من عقابه.

﴿... فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

والفتنة هي الامتحان والابتلاء.. وهي في الأصل تعريض الذهب إلى النار لينفصل عن الأخلاط. فالآية تحذر من عذاب الدنيا وعقاب الآخرة لكل من خالف أوامر الرسول الشرعية. أما في الأمور الدنيوية فعليك أن ترجع إلى علم المتخصصين.

٤ ـ ختام السورة: وفيه يذكر بأمور:

١ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾: فأين يهرب من يعصي أمره؟! هل يملك الإفلات؟

٢ ـ ﴿... قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ...﴾: والشعور برقابة الله هو المحرك الأول لسلوك المؤمن.

٣ ـ ﴿... وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟...﴾: استحضار الخوف من هول الآخرة والفضيحة فيها.

٤ ـ ﴿... وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾: فعن علم قد أمر.. وعن علم سوف يحاسب المحسن والمسيء وهذا نموذج من التربية القرآنية العالية: استحضار الخوف والرجاء (اطمئن فإن الله يعلم إحسانك ولن يظلمك).

وإنه لأقوى ختام تختتم به أحكام سورة النور وآدابها التي أراد الله بها أن ينشىء مجتمعاً نظيفاً رائداً يحيىٰ في النور ويستمتع بالنور ويقدم النور للعالم.

• • •

وبعد . .

وبعد . . فقد وقفت أتأمل ما كتبت في تفسير هذه السورة العظيمة التي أراد الله لها أن تكون نوراً للبيت المسلم وللحياة الاجتماعية في الأمة المسلمة . . وقفت أتأمل كيف كانت تأتي الأحكام . . وكيف كان الله يعقب عليها بأهمية البيان . . «يبين الله لكم» . . . حقاً إن ما كتبت قليل وقاصر أمام هذا النور والبيان . . وإني على ثقة بأن المسلمين سيكتبون من بعدي ما هو أفضل وسيقدمون من البيان ما هو خير وأبقى . .

في السورة تنظيمات لحياة الأسرة وأوامر موجهة للمرأة . . وقد سبق لي أن تناولت بعض المواضيع التي تخص المرأة في كثير من كتاباتي وخاصة في تفسير سورة النساء . . وقد مضى على تقديمه ثماني سنوات . . وإني لأتساءل الآن هل تمكنت في سورة النور من عرض إضافات جديدة ومفيدة في موضوع المرأة . . ؟!

سأترك للقراء الحكم وإبداء الرأي . . ولكني أوجز موقفي في هذه السطور . .

إذ أنني رغم ألمي للوضع السيىء الذي تعيش فيه المرأة في عالمنا خاصة وفي العالم كله وإن اختلفت النسب والدرجات في الهضم والبخس . . لم أتصدَ للدفاع عن حقوق المرأة . . فلقد تعودت أن أبدأ من الواجبات . وما الفائدة من المطالبة بالحقوق؟!

لقد أردت للمرأة أن تكون هي القلب المعطاء والسَّكن الوادع والمحرك الخلاق الذي يصنع الخير ويدفع للخير.. أردت لها أن تتجاوز كل ما يوجه إليها من ظلم وبخس وتهتم بإثبات ذاتها عملياً.. فإنني أؤمن أن بإمكانها أن تؤدي دوراً عظيماً في صناعة الإنسان وارتقائه.

ولن تستطيع أن تتعالى وتتجاوز إلاَّ إذا رفعت عينيها إلى الله وارتبطت به وحده ورغبت في ثوابه ورضاه.. إنها إن لجأت إلى كنف الله وجدت الأنس والسكينة والعزاء واستطاعت أن تمضي في البناء والارتقاء دون أن تثنيها العقبات.. ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾[1].

أختي المؤمنة: لن يستطيع أحد في الدنيا أن يحرمك من نور العلم.. ولا يقدر مخلوق أن يحجب عنك نور الله أو يغلق بابه في وجهك.. إن الباب مفتوح وإن كان الطريق مليء بالمعاناة.. وكما يقول أحدهم:

إلزم الباب إن عشقت الجمالا ۝ واهجر النوم إن أردت الوصالا

فتعالي نسلك الطريق لنتذوق حلاوة التعب في سبيل الوصول.. تضيء لنا سورة النور..

ختاماً: الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»

حنان لحام

٤/١/١٤١٤هـ ـ ٢٤/٦/١٩٩٣م

(١) سورة الشرح: الآيتان ٧ ، ٨.

فهرس

• • •